فقه التعايش
في السيرة النبوية

الشيخ حسين علي المصطفى

المركز الإسلامي الثقافي
مجمع الإمامين الحسنين عليهما السلام

الطبعة الأولى
١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

المركز الإسلامي الثقافي

لبنان - حارة حريك - مجمع الإمامين الحسنين عليهما السلام
هاتف: ٠١/٥٥٧٠٠٠ - ٠١/٥٤٤٤٠٢
خليوي: ٠٣/٥٦٥٠٧٤

* * *

البريد الإلكتروني
info@tawasolonline.net
info@fadlullahlibrary.com

* * *

المواقع الإلكترونية - المركز الإسلامي الثقافي
www.sayedfadlullah.org
www.tawasolonline.net
www.fadlullahlibrary.com
youtube/tawasolonline

Facebook:
SayyedFadlullah
مكتبة العلّامة المرجع السيّد فضل الله العامة
تواصل أون لاين

فقه التعايش
في السيرة النبوية

الشيخ
حُسَين عَلي المُصطفى

المركز الإسلامي الثقافي
مجمع الإمامين الحسنين عليهما السلام

تصدير

يمثّل التعايش السلمي بين المسلمين أنفسهم، وبينهم وبين غيرهم من أتباع الأديان والملل حاجةً ضرورية وملحّة، كونها تساهم في بناء القواسم المشتركة وترسيخها في أرض الواقع، ليحدث التلاقي والانفتاح والحوار، وتضيّق مساحة الخلاف لصالح مساحات القبول بالآخر والاعتراف به كقيمة تساهم في بناء المجتمع الذي ينشد الأمن والأمان في وحدة إنسانيّة لا مكان فيها للعصبيّات والمذهبيّات التي تشكّل عائقاً كبيراً يساهم في الإبعاد والتهميش والخوف وضياع الآمال الكبيرة فيما يبني مجتمعاً مستقراً وآمناً..

وقد أجاد سماحة العلاّمة الشيخ حسين المصطفى ـ الذي يُعتبر واحداً من علماء المسلمين الحريصين ـ فيما كتبه عن التعايش وعن الوحدة بين المسلمين، حيث في وحدتهم تتجلّى قوّتهم وعزّتهم، وهم بذلك يترجمون بصدق قول الله تعالى: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وأكّد سماحته في هذا الكتاب بأنّ الإسلام يهدف إلى إقامة علاقة سليمة مع كلّ الشعوب، تؤخذ فيها بعين الاعتبار حقوق الجميع وتعزيز التعايش السلميّ بينهم، وتساعد على استمرار السِّلم والصداقة.

ونسأل المولى تعالى أن يأخذ بيد العاملين للإسلام والدعاة إلى الله لمزيد من الوحدة والتكاتف، ولكثير من المحبة والتواصل لنؤكّد قول الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١١٠].

والله الموفق

مدير المركز الإسلامي الثقافي
شفيق محمد الموسوي
رمضان ١٤٣٥ هـ
تموز ٢٠١٤م

❀❀❀

مقدّمة

بعث الله تعالى نبيّه وحبيبه محمّداً ﷺ لإشاعة الرحمة بين البشرية، وأراد سبحانه للرحمة أن تتحوّل إلى نظامٍ عمليٍّ شاملٍ لحياة الإنسان في كلِّ ما يصلحُها ويبتعد بها عن الفساد، لا أن تكون مجرّد عاطفة وإشفاق.

وما نشير إليه أنّ كثيراً من المسلمين يفهم من كلمة الرحمة، الحالة العاطفية التي ينبض بها القلب! ولكنّ الرحمة في الإسلام، وفي التشريع، تمثِّل نظاماً عملياً في الحياة، لذا قال الله سبحانه وتعالى عن النبيّ ﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وللأسف، قد نجد ـ في واقعنا ـ بعض الناس، الذين يستسلمون لبعض الفئات التي تتزَيّا باسم الدين، والتي ينفتح الناس عليها على أساس أنّها الرحمة التي تقرّبهم إلى الله. وربّما ينطلق البعض من هؤلاء ليقدِّموا أنفسهم على أنّهم يملكون مفاتيح رحمة الله ومواقع القرب منه، ولكنّهم في الواقع يخدِّرون الناس من خلال ربطهم بالدين عن طريق الخرافة والمغيَّبات، على أساس ادّعائهم أنّهم يملكون بعض الغيب في ذلك، ويحدِّثونهم عنه في بعض ما يعانونه، ذريعة لاستغلاهم ماديّاً وفكريّاً.

فهل هذه هي الرحمة المنشودة؟!!

فالنبي الكريم ﷺ لم يكن كذلك، بل كان رحمةً للعالمين، رحمةً في رسالته، ورحمةً في شرعه، ورحمةً في أخلاقه، ورحمةً في منهجه وفي كلِّ مجالات الحياة، لا مجرّد عاطفة وإشفاق.

وكان ﷺ يدعو دعوة عالمية، بما هي مضمون وبما هي وسيلة، وإن كانت الوسيلة في زمانه ليست هي الوسيلة في زماننا، ومع ذلك وظّف كلّ ما يُسهم في تحقيق عالمية الدعوة.

والخطاب الإسلامي المعاصر في حاجة إلى أن يخاطب الغرب والشرق، وأن لا ينطويَ على ذاته، وهذا يستدعي منّا أن نعرف ثقافات الشعوب والمجتمعات العالمية لكي نخاطبهم بلسانهم، وإن لم نفعل ذلك فدعوى العالمية ستبقى شعاراً دون ممارسة، وفي الوقت المعاصر هناك إمكانيات هائلة للتواصل ومعرفة الآخر معرفة دقيقة، فقط نحتاج إلى خطط واستراتيجيات ذات رؤى واضحة.

إنّ الخطاب الإسلامي في السنوات الأخيرة، قد قيل فيه الكثير، وسال في موضوعه مداد غزير، لكنّ الأمر الملاحظ هو أنّ هذا الخطاب يقوَّم ويمحَّص وكأنّه لا هُويّة له ولا مرجعية، فلا تجديد للخطاب الإسلامي إلا بإرجاعه إلى ينابيعه الصافية، القرآن الكريم وسُنّة رسوله ﷺ..

ولعلَّ الغياب الأبرز في خطابنا الإسلامي هو غياب صفة الرحمة عن الخطاب الديني، عند الكثير من الوعّاظ المسلمين، حيث نلحظ أنّ هذا الخطاب ينحو منحى التشدّد؛ فهو يركّز على صفة «الانتقام» الإلهي ويبالغ في الحديث عن صور العذاب ومشاهد النيران أكثر ممّا نراه يركّز أو يتحدّث عن رحمانية الله ورحيميّته، وهذا ما يترك تأثيراً سلبيّاً على ذهن المتلقّي والمخاطب.

إنّ المطلوب أن نقدّم «الله» إلى الناس بما قدّم به نفسه، قال تعالى: ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾

[الحجر: ٤٩ – ٥٠]، حيث نلاحظ أنّه تعالى في هذه الآية قد نسب صفة الرحمة إلى نفسه، فقال: ﴿أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ بينما نسب صفة العذاب إلى فِعْله لا إلى نفسه، فقال: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾، في إشارة بليغة ولطيفة إلى أنّ الرحمة تلائم ذاته أكثر ممّا تلائمها صفة العذاب، كما أنّ الآية من جهة أخرى قدّمت صورة الرحمة على صورة العذاب في إيماءة واضحة وجميلة إلى أهمية الابتداء في الخطاب التبليغي بما يبعث على السرور والانشراح وبما يجتذب النفوس والقلوب.

وهكذا تمثّلت الرحمة في الحياة، في ظلِّ نظام قائم على أساس احترام العقل والنفس؛ ليعيش الإنسان في المجتمع الإسلامي الأمنَ والطمأنينةَ في ذلك كلِّه.

ويؤسِّس النصّ القرآني صيغة للتعارف والتعايش في الاجتماع البشري، مبنية على الأمن والتسامح والسلم الأهلي، في آيات متعدّدة، منها قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:١٣].

ويهدف الإسلام إلى إقامة علاقة سليمة مع كلِّ الشعوب، تؤخذ فيها بنظر الاعتبار حقوق الجميع وتعزيز التعايش السلمي بينهم، وتساعد على استمرار السلم والصداقة، وتستند على قاعدة قرآنية متينة وهي ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٩]. ومن هنا أرسى الإسلام قواعد وأسساً للتعايش مع الآخر في جميع الأحوال والأزمان والأماكن، بما يضمن تفاعلهم مع الآخر وتواصلهم معه من دون تفريط في الثوابت الإسلامية.

ويظلّ الرسول الأكرم ﷺ الأسوة الحسنة والقدوة الطيّبة في كلِّ شيء، مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]. وقد ترك رسول الله ﷺ لنا نماذج عديدة

للتعايش مع الآخر داخل المجتمع الإسلامي وخارجه، وهي صالحة للمسلم في كلِّ عصر بحسب مقتضيات الحال والمكان والزمان.

وتمثِّل تلك النماذج منهجاً ونبراساً للمسلمين في علاقتهم مع الآخر، ليكونوا في مقدِّمة الأمم في الدعوة إلى السلام والتعايش السلمي مع مختلف الأمم والطوائف، وذلك بالتزامهم بثوابت الإسلام ومبادئه التي تدعو إلى الخير والبرّ والتعاون في إطار من الاحترام المتبادل.

وهي نماذج قائمة لا يعتريها إبطال أو تعطيل، وواقع وحال الأفراد أو الجماعات هو الذي يحدِّد للمسلم في هدي أيّ نموذج يمكن أن يتواصل ويتعاون ويحقِّق السلام الاجتماعي والتعايش مع الآخر.

وفي حقيقة الأمر، إنّ هذه البحوث طُبعت مختصرة في كتابي «أدبيات التعايش بين المذاهب» إلا أنّ الأخ العزيز الباحث السيد عباس الشبركة حفظه الله التمس منّي ـ نزولاً على رغبة بعض الأخوة الأكاديميين في جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلامية بالرياض ـ طبعها مستقلّةً لأهمِّيّتها.

وكان هذا دافعاً في النظر إلى هذه البحوث مرّة أخرى، والإفاضة في بعض مطالبها، فلهم مني الشكر والعرفان الجميل لثقتهم بي.

❀ ❀ ❀

مفهوم التعايش

قال ابن فارس: العين والياء والشين أصل صحيح يدلّ على حياة وبقاء، قال الخليل: العيش الحياة، والمعيشة: الذي يعيش به الإنسان من مطعم ومشرب، وما تكون به الحياة، والعيشة مثل الجلسة والمشية، والعيش المصدر الجامع، وكلّ شيء يُعاش به أو فيه فهو معاش قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾ [النبأ: ١١] ورجل عائش إذا كانت حاله حسنة(١).

وإذا ما عدنا إلى القرآن الكريم فإنّنا سنجد هذا اللفظ استُعمل بهذا المعنى في سبعة مواضع بتصاريف متعدّدة:

كقوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحاقة: ٢١].

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾ [النبأ: ١١].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٤].

وقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴿٥٨﴾﴾ [القصص: ٥٨].

وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف: ٣٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ﴿١٠﴾﴾ [الأعراف: ١٠].

---

(١) معجم مقاييس اللغة: مادة (عيش).

فالإسلام دين عالمي يتّجه برسالته إلى البشرية كلّها، تلك الرسالة التي تأمر بالعدل وتنهى عن الظلم وترسي دعائم السلام في الأرض، وتدعو إلى التعايش الإيجابي بين البشر جميعاً في جوٍّ من الإخاء والتسامح بين كلِّ الناس بصرف النظر عن أجناسهم وألوانهم ومعتقداتهم.

فالجميع ينحدرون من «نفس واحدة»، كما جاء في القرآن الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴿١﴾﴾ [النساء: ١].

وعالمنا اليوم في أشدِّ الحاجة إلى التسامح الفعّال، والتعايش[1] الإيجابي بين الناس، أكثر من أيِّ وقتٍ مضى، نظراً لأنّ التقارب بين الثقافات والتفاعل بين الحضارات يزداد يوماً بعد يوم بفضل ثورة المعلومات والاتصالات والثورة التكنولوجية التي أزالت الحواجز الزمانية والمكانية بين الأمم والشعوب، حتى أصبح الجميع يعيشون في قرية كونية كبيرة.

وديننا الإسلامي يسعى، من خلال مبادئه وتعاليمه، إلى تربية أتباعه على التسامح إزاء كلّ الأديان والثقافات. فقد جعل الله الناس جميعاً خلفاء في الأرض التي نعيش فوقها، وجعلهم شركاء في المسؤولية عنها، ومسؤولين عن عمارتها مادياً ومعنوياً كما يقول القرآن الكريم: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴿٦١﴾﴾ [هود: ٦١] أي طَلَبَ منكم عمارتها وصُنْعَ الحضارة فيها. ومن أجل ذلك ميّز الله الإنسان بالعقل، وسلّحه بالعلم حتى يكون قادراً على أداء مهمّته وتحمّل مسؤوليّاته في هذه الحياة.

وفي الوقت نفسه يطلب القرآن من الإنسان أن يمارس حريته التي منَحها الله له والتي هي شرط ضروري لتحمّل المسؤولية. فالله سبحانَه لا يرضى لعباده الطاعة الآلية التي تجعل الإنسان عاجزاً عن العمل الحرّ المسؤول.

---

(١) البقرة: ٢٣٧؛ النحل: ١٢٦؛ الشورى: ٤٠؛ النساء: ١٤٩.

ويسود مصطلح «التعايش السلمي» في الأوساط البدائية في المجال الاجتماعي، كالتعايش بين الأفراد أو المجموعات الإثنية أو القبلية، وانتقل المصطلح من المجال الاجتماعي إلى المجال السياسي في ظلّ الدولة الحديثة القائمة على أساس التنوّع الديني أو الإثني، وما ينتج عنه من صراعات ونزاعات، ثمّ صار الآن مطلباً دولياً في ظلّ الصراعات العالمية والدولية.

ومصطلح «التعايش السلمي» ـ كشعار سياسي ـ يعني البديل عن العلاقة العدائية بين الدول ذات النُّظم الاجتماعية المختلفة، ومع هذا لا مانع من التوسُّع في استخدامه في ساحة العلاقات الاجتماعية بين أتباع الديانات المختلفة وبخاصّة المقيمين في دولة واحدة.

وإذا كان المفهوم يتّجه إلى التعايش بين الاتجاهات المتباينة دينيّاً أو سياسيّاً فالحاجة ماسة ـ أيضاً ـ لبلورة رؤية مستوعبة حتى لأهل الملّة الواحدة المتّفقة دينيّاً والمتباينة من بعض الوجوه التي تؤدّي إلى الاحتراب في كثيرٍ من البلدان.

وإذا كان الأمر كذلك فإنّ التعايش السلمي يمكن أن يشمل الآتي:

أ. التعايش بين أهل الملّة الواحدة.

ب. التعايش بين أهل الملل المختلفة.

ج. التعايش بين الدول المختلفة سياسياً.

د. التعايش بين القوى الاجتماعية المختلفة.

❀❀❀

الأصول المنهجية لفقه التعايش

قبل أن ندخل في رحاب السيرة النبوية المباركة، نؤصّل لأهمّ مرتكزات ثقافة التعايش، على هدي قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ ١٣﴾ [الحجرات: ١٣] والتي تؤكّد عدّة مسائل مهمّة وهي:

الأولى: إنّ الخصوصيات الإنسانيّة ـ قوميّة كانت أو عرقيّة أو جغرافيّة ـ لها واقع في الوجود الإنسانيّ لا يمكن إلغاؤه، باعتبار أنّ تلك الخصوصيّات تدخل في تكوين الإنسان، ولا تمثّل حالة هامشية في حياته.

الثانية: يحترم الإسلام خصوصيّات كلّ أمّة بوجهها الإيجابي، بشرط:

١ـ أن لا تتحوّل تلك المشاركة إلى عقدة عصبيّة تأخذ ميلاً عدوانيّاً تجاه الآخرين، بحيث تبتعد عن الخطّ الذي وضعه الإسلام.

٢ ـ وأن لا تصبح تلك الخصوصيات فاصلاً يفصل كلّ فئة من الناس.

وفي الحديث البليغ عن مولانا عليّ بن الحسين زين العابدين عليه السلام قال: «**الْعَصَبِيَّةُ الَّتِي يَأْثَمُ عَلَيْهَا صَاحِبُهَا أَنْ يَرَى الرَّجُلُ شِرَارَ قَوْمِهِ خَيْراً مِنْ خِيَارِ قَوْمِ آخَرِينَ، وَلَيْسَ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ أَنْ يُحِبَّ الرَّجُلُ قَوْمَهُ، وَلَكِنْ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ أَنْ يُعِينَ قَوْمَهُ عَلَى الظُّلْمِ**»[1].

(١) الكافي: ج ٣ ص ٣٠٨ ح ٧؛ البصائر والذخائر للتوحيدي: ج ٤ ص ٢٠٦؛ سنن ابن ماجة: ج ٢ ص ١٣٠٢ ح ٣٩٤٩؛ مصنف ابن أبي شيبة: ج ٧ ص ٤٧٩ ح ٣٧٣٧٤؛ مسند أحمد: ج ٤ ص ١٠٧ ح ١٧٠٣٠.

الثالثة: يؤكّد الإسلام على أنّ التنوّع في الخصوصيّات الإنسانيّة هو مظهر من مظاهر التنوّع في الخبرات العلميّة والعمليّة، ما يجعل من التعارف بين الشعوب إثراء لكلِّ أمّة.

والتعايش مع الآخر يعني قبوله واحترامه مهما اختلف عنك، حتى وإن لم يعجبك.

فلا يجوز إكراه أحد على الدين سواء كان يهودياً أو مسيحياً أو غير ذلك من الأديان؛ لأنّ الله تعالى قد أعطى للإنسان الحرية في اعتناق أيّ دين ما، والعيش حسب معتقداته.

بل إنّ من واجب المسلمين احترام كلِّ إنسان وما يعتقد، ولذا جاءت التوصيات القرآنية الكريمة في حرمة سبِّ معتقدات الآخرين؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنعام: ١٠٨]. إنّه توجيه في غاية الإحكام والإتقان، والنظر إلى آفاق المستقبل نظرة فاحصة عميقة بعيدة عن التعصّب؛ تقدّر النتائج بالتقدير السليم البعيد عن مضاعفة المشكلات، وتسدّ كلّ الذرائع والوسائل المؤدّية إلى الضلالات واتّباع الأهواء والشهوات. ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنعام: ١٠٨].

كما أنّه من الضروري بين المسلمين أنفسهم أن لا يتسبَّب اختلاف الآراء في المسائل المتفرّعة بالنزاع بين الطوائف التي تنتمي إلى عقيدة واحدة. ومعلوم أنّ المسائل الفرعية كانت سبباً لنشأة الجماعات والمذاهب الفقهية. ويعتبر المسلمون بأنّ هذا الخلاف يعود عليهم بالرحمة.

وقد اختلف العلماء في الأحاديث المتواترة التي لا تحمل الشك في أنها

صادرة من فم النبيّ ﷺ. وكذلك اختلفوا في مسألة الإجماع؛ هل تحقّق بالفعل أم لا. والنص الوحيد الذي لم يختلف فيه المسلمون هو القرآن الكريم..

ومن أجل ذلك يجب على المسلم التسامح مع غيره من المسلمين ما لم يخالف سلوكه وأفكاره الأحكام الظاهرة للقرآن الكريم؛ لأنّه ليس من الضروري أن يتّبع المسلم النتائج الفقهية التي توصّل إليها غيره، إلا أن تكون موافقة تماماً لنصٍّ قرآني واضح لا شبهة فيه.

وهذه الأوراق تذكِّرنا أنّ سماحة الرسول ﷺ ليست للمسلمين فقط وإنّما هي رحمة للعالمين، وهو ما يدعونا إلى العودة إلى لغة التعايش التي دعا إليها الرسول ﷺ، والتي علَّم البشرية طيلة ثلاث وعشرين سنة من دعوته المباركة أنّه الرحمة للعالمين.

❁ ❁ ❁

تعايش النبيّ في مكّة قبل البعثة

عاش رسول الله ﷺ في بيئة يغلب على سكّانها عبادة الأوثان، وممارسة الرذيلة وارتكاب الفواحش، وامتدّ ذلك إلى أنّ القويَّ كان يطغى على الضعيف ويأكل حقَّه، حتّى أنّ السيّد كان يقهر مَن تحت يده من عبيدٍ وإماءٍ ولا يحترم إنسانيّتهم، وكان العربيّ يتعالى على العجميّ، والأبيض يفخر على الأسود.

وفي الصحيح عن أبي الرجَاء الْعطَارِدِيّ، قال: «كنّا نَعْبدُ الحَجَرَ، فإذا وَجَدنَا حجَرًا هو خير منه أَلْقَيْنَاهُ وَأَخَذنَا الآخَرَ، فإذا لم نَجدْ حجَرًا جَمَعنَا جُثْوَةً من ترَابٍ، ثمّ جئْنَا بالشَّاةِ، فحلَبنَاهُ عليه، ثمّ طفْنَا بهِ»[1].

وقال ابن عباس: «إذَا سَرَّكَ أنْ تَعْلَمَ جَهْلَ العَرَبِ، فاقْرأ ما فَوْقَ الثلاثِينَ ومِائَةٍ في سُورَةِ الأنْعَام ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ إلى قَوْلِهِ: ﴿قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾»[2].

وقد وصف حالهم ـ بدقّة ـ جعفر بن أبي طالب، حين خطب أمام النجاشيّ، فقال:

«أيّها الملك، كُنّا قوماً أهلَ جاهِليّة، نعبدُ الأصنام، ونأكلُ الميتة، ونأتي الفواحِشَ، ونقطعُ الأرْحام، ونُسيء الجوار، ويأكلُ القويُّ مِنّا الضعيف، فكنّا

---

(١) صحيح البخاري: ج ٤ ص ١٥٩١ ح ٤١١٧.
(٢) صحيح البخاري: ج ٣ ص ١٢٩٧ ح ٣٣٣٤.

على ذلك، حتّى بعث الله إلينا رسولاً منّا نعرف نسبَه وصدقَه وأمانَتَه وعفافَه، فدعانا إلى الله لنوحِّده ونعبده، ونخلع ما كنّا نعبدُ نحنُ وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرَنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحُسْنِ الجوار، والكفِّ عن المحارم والدّماء، ونَهانا عنِ الفَواحِش وقول الزُور، وأكل مالِ اليَتيمِ، وقذفِ المحصَناتِ، وأمَرنا أنْ نَعبُدَ الله وَحدَهُ لا نشركُ بِهِ شيئاً، وأمَرَنا بالصّلاةِ والزّكاةِ والصِيام... وصدّقناهُ، وآمَنّا به واتَّبعناهُ على ما جاء به من الله فعبدنا الله وحدَه فلم نشرك به شيئاً وحرَّمنا ما حرّمَ عَلَيْنا وأحللنا ما أحلَّ لنا، فَعدا علينا قومُنا فَعذَّبُونا وفتنونا عن ديننا ليردُّونا إلى عبادة الأَوثان مِنْ عِبادَة الله تعالى، وأنْ نَسْتَحِلَّ ما كنا نَستحِلُّ من الخَبائث»[1].

كما وصفت السيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام العهدَ الجاهليّ بمثلِ ذلك إذ قالت في خطبتها، بعد وفاة أبيها ﷺ: «**فَبَلَّغَ[2] بالرّسالة، صادِعاً بالنَّذارة[3]، مائلاً عَلى مَدْرَجَةِ[4] المُشْركيْن، ضارباً ثَبَجَهُمْ[5]، آخِذاً بأَكْظامِهِمْ، داعِياً إلى سَبيْلِ رَبِّه بِالحِكْمَةِ وَالْمَوْعظَةِ الْحَسَنَةِ، يَكْسِرُ الأَصْنامَ، ويَنْكُتُ[6] الهامَ[7]، حتّى انْهزَمَ الجَمْعُ، وَوَلَّوا الدُّبُر، حَتى تَفَرّى[8] الليلُ عَنْ صُبْحِهِ، وَأَسْفَرَ الحَقُ عَنْ مَحْضِهِ[9]، وَنَطَقَ زَعيمُ الدِّينِ، وَخَرستْ شَقاشِقُ[10] الشَّياطينِ، وأطاحَ وَشِيظُ[11]**

(١) السيرة النبوية: ج ١ ص ٣٣٥-٣٣٦؛ مسند أحمد: ج ٤ ص ٢٨٦.
(٢) أي الرسول ﷺ
(٣) النذارة: الإنذار.
(٤) المدرج والمدرجة: المسلك والمذهب.
(٥) الثبج: وسط الشيء ومنه الكاهل.
(٦) ينكت: يلقيه ويطرحه.
(٧) الهامة: الرأس.
(٨) تفرى: تشقق.
(٩) المحض: الخالص.
(١٠) الشقشقة: شيء يشبه الرئة يخرج من فم البعير إذا هاج. والمراد منه هنا تكلم الشياطين بملأ أفواههم بجرأة وشهامة.
(١١) الوشيظ: الأتباع والخدم.

النِّفاقِ، وانَّحَلَّتْ عُقَدُ الْكُفْرِ والشِّقاقِ، وَفُهْتُمْ بِكَلِمَةِ الإخْلاص في نفَر مِنَ البيضِ الْخِماص، وَكُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النّارِ مُذْقَةَ[1] الشّارب، وَنُهْزَةَ[2] الطامع، وقَبْسَةَ العِجْلان[3]، وَمَوطِئَ الأَقْدام؛ تَشْرَبُونَ الطَرقَ[4]، وَتَقْتاتُونَ القِدَّ[5] وَالوَرق، أذِلَّةً خاسِئينَ، تَخافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُم النّاسُ مِنْ حَوْلِكُمْ، فَأَنْقَذَكُمُ اللهُ تَعالى بِمحمّد بَعْدَ اللُّتَيّا وَالَّتي، بَعْدَ أن مُنِيَ بِبُهْمِ[6] الرجالِ، وَذُؤبانِ الْعَرَب، وَمَرَدَةِ[7] أَهْلِ الْكِتاب، كُلَّما أَوْقَدُوا ناراً لِلْحَربِ أطْفَأَها اللهُ، أَوْ نجَمَ[8] قَرْنُ الشَّيْطانِ، أَوْ فَغَرَتْ[9] فاغِرَةٌ مِنَ الْمُشركين...»[10].

حِلف الفضول

في هذه البيئة غير السوِّية عاش رسول الله ﷺ مع قومه متآلفاً معهم، يقوم بدورٍ اجتماعيٍّ فعَّال، ويتعاون في أمور البرّ والخير.

ولعلَّ أكثر الشواهد وضوحاً وجلاء في إفادة اهتمام الإسلام بصياغة مجتمع المواطنة ما يُروى من أنّ النبيّ ﷺ قد استحسن حلفاً شهده في صباه وهو حلف عقدته قريش قبل الإسلام سُمّي (حِلف الفضول)؛ وسبب إنشاء هذا الحلف أنّ بعض زعماء قريش رأت أنّ مِن قريش مَن يجور ويظلم الناس مستنداً إلى مكانته

---

(١) المذقة: شربة من اللبن الممزوج بالماء.

(٢) النهزة: الفرصة.

(٣) قبسة العجلان: الشعلة من النار الّتي يأخذها الرجل العاجل.

(٤) الطرق: الماء الذي خوّضته الإبل وبوّلت فيه.

(٥) القد: قطعة جلد غير مدبوغ.

(٦) البهمة: الشجاع الذي لا يهتدي من أن يؤتى.

(٧) المارد: العاتي.

(٨) نجم: طلع.

(٩) فغرت: فتحت.

(١٠) نثر الدرر للآبي: ج ٤ ص ٨؛ أمالي الطوسي: ج ١ ص ٣٣٨ ح ٥٥؛ بلاغات النساء، أحمد بن أبي طاهر ابن طيفور: ص ٢١؛ منال المطالب، ابن الأثير: ص ٥٨٨؛ جواهر المطالب في مناقب الإمام علي بن أبي طالب، ابن الدمشقي: ج ١ ص ١٥٥.

الاجتماعية، ومن ذلك أنّ العاص بن وائل اشترى بضاعة من أحد التجار الغرباء الوافدين على مكة. ورفض أن يسلّمه الثمن، فتداعت قريش إلى دار عبد الله بن جذعان، وتعاهد الحاضرون على أن يكونوا يداً واحدة مع كلّ مظلوم على الظالم، فردّوا للبائع الغريب حقّه، وتأصّل في تقاليدهم مقتضى هذا الحلف[1].

وقد تمسّك النبيّ ﷺ بهذا الحلف، وعمل بمقتضاه حتى بعدما عادته قريش وضيّقت عليه هو وأصحابه. ولم ينكر ﷺ ما عليه الجاهلية من أخلاق حسنة لمجرّد أنّهم عادوه أو حاربوه.

ولذا نرى أنّ مجموعة من فقهاء الإسلام قد اعترفوا بهذا الحلف وبشرعيّته[2].

ويُروى في السيرة النبوية ـ أيضاً ـ أنّ أبا جهل بن هشام ابتاع من شخص جمالاً، فماطله بأثمانها.

فوقف الرجل على نادي قريش وقال: يا معشر قريش مَن رجلٌ يعينني على أبي الحكم بن هشام، فإنّي غريب وابن سبيل، وقد غلبني على حقّي؟!

فدلّته قريش على النبيّ ﷺ ليُنصفه من أبي جهل؛ استهزاء برسول الله ﷺ، لعلمهم بأنّه لا قدرة له على أبي جهل، وقالوا له: أترى ذلك الرجل ـ يعنون رسول الله ـ اذهب إليه فهو يعينك عليه.

فجاء الرجل إلى رسول الله ﷺ فذكر له حاله مع أبي جهل، فخرج مع الرجل إلى أبي جهل وضرب عليه بابه، فقال: مَن هذا؟! قال: **محمّد**.

(١) شفاء الغرام: ج ٢ ص ١٦٣ـ١٦٤؛ إتحاف الورى: ج ١ ص ١٢٠؛ تاريخ اليعقوبي: ج ٢ ص ١٧؛ مروج الذهب: ج ٢ ص ٢٧١؛ الطبقات الكبرى: ج ١ ص ١٢٩؛ البداية والنهاية: ج ٢ ص ٢٩٢؛ السيرة الحلبية: ج ١ ص ١٣٢؛ الكامل في التاريخ: ج ١ ص ٤٧٣.

(٢) أنظر: الأم للإمام الشافعي: ج ٤ ص ١٦٦؛ المجموع للنووي: ج ١٩ ص ٣٨٤؛ تهذيب الأسماء: ج ٣ ص ١٨١؛ سنن البيهقي: ج ٦ ص ٣٦٧؛ فتح الباري: ج ٤ ص ٣٨٧؛ دراسات في ولاية الفقيه وفقه الدولة الإسلامية: ج ٢ ص ٢٠٧.

فخرج إليه وقد انتقع لونه (أي تغيّر من الرهبة) فقال له: **أعطِ هذا حقَّه**. قال: نعم، لا تبرح حتى أعطيَه الذي له.

فدفعه إليه، ثم إنّ الرجل أقبل حتى وقف على ذلك المجلس فقال: جزاه الله خيراً، فقد والله أخذ لي بحقّي[1].

بتلك النماذج وغيرها يجب على المسلمين أن يقتدوا في تعاملهم مع الآخر، حيث يضعون نصب أعينهم هدي الرسول ﷺ في التعامل مع غير المسلمين وحِرْصه على التمسّك بالأخلاق والمبادئ الإسلامية القويمة التي تحثّ على الوفاء والصدق والأمانة، فقد كان ﷺ يُعرف في مكّة قبل البعثة بأنّه الصادق الأمين؛ ولم يُعرف عنه أبداً أنّه خان أمانة أو نقض عهداً أو كذب يوماً.

إنَّ نموذج التعايش في مكة مع الآخر قبل البعثة ـ وكان المقام فيه مقام التعايش والوفاء والتعاون على البرّ والخير ـ يدفع المسلمين الذين يعيشون في مثل تلك الظروف ـ في أيِّ زمان أو مكان ـ إلى التمسّك بعقيدتهم وعدم التفريط في ثوابت وأصول الإسلام مع الالتزام بمكارم الأخلاق التي تؤسّس وترسِّخ تلك العلاقة مع الآخر بما يضمن السلم والاستقرار الاجتماعي، ويكشف عن حقيقة الإسلام وسماحته أمام العالمين.

وثمّة مبدأ في العلاقات الدولية أكَّده الإسلام ألا وهو «التحالف»، واحترام المواثيق والعهود في العلاقات بين الأفراد والجماعات والدول، ولكن على أساس أن ينطلق هذا التحالف من أساسٍ متين في احترام حقوق الإنسان والدفاع عن المظلومين.

لقد كان حلف الفضول معاهدة مجتمعية مبكرة، واتفاقاً على مناهضة الظلم وإيقاف الظالمين أمام سلطة المجتمع، وإن لم يكن للدولة حضور أو وجود..

(١) السيرة الحلبية: ج ١ ص ٥٠٧.

وقد مثّل المتحالفون حقيقة المجتمع المدني الحي اليقظ، الحامي لقيم العدل والمناهض للظلم والعدوان.

ولهذا فكلّ المواثيق الدولية التي تحترم الإنسان وتدافع عن حقوقه يقرّها الإسلام حتى لو جاءت من غيره أو وضعها الآخرون.

بيد أنّ الإسلام لا يقرّ الأحلاف التي تتمّ على حساب شعوب وجماعات أخرى، أو التي تُظْلَم فيها هذه الجهة أو تلك، فموازين القوى ليست هي التي تمنح العقود والمواثيق شرعيّتها، وإنّما الذي يعطيها الشرعية هو ما تملكه من عناصر الحقّ ونصرة المظلوم.

ولذلك فإنَّ الظلم مهما أُعطيَ من عناوين دولية برّاقة، كعنوان الديمقراطية ـ مثلاً ـ، فإنّ ذلك لا يُغيّر من الحقيقة شيئاً، ولأنّ العناوين لا تبدّل حقائق الأمور وطبيعتها.

وكدُعاة، وعلماء دين، علينا أن نحذِّر من الانتقائية في تطبيق المواثيق والعهود، وأن لا يُفسَح المجال لأيّ قوّة غاشمة أن تفرض نفسها على ساحة هذه المواثيق على المستوى الدولي؛ انطلاقاً من قدرتها على الضغط، أو على تزييف الحقائق، حيث تنطلق من موقع عدوانها ومخاصمتها لأُسُس القانون الدولية لتدّعي أنّ ما تقوم به إنّما هو لتطبيق هذا القانون غير آبهة بكلِّ التفسيرات والتحذيرات لها من مخاطر هذا الفهم لمسألة القانون الدولي، والذي ينطلق من نزوة العدوان وحبّ السيطرة والاستيلاء.

ومن منطق حلف الفضول، فإنّنا ننظر إلى أيِّ توافق يتمّ على الساحة الإسلامية وإلى أيِّ تقارب، وخصوصاً بين المسلمين السنّة والمسلمين الشيعة، نظرةً إيجابيّة عموماً، وندعو إلى التعامل مع هذا التقارب بروحٍ إيجابيّة حتى لا تبقى اللقاءات مجرّد كلمات كُتبت أو مواقف صدرت، بل ترقى إلى مستويات التعاون العملي

الذي تتمّ ترجمته على مستوى الواقع في حركة تواصل وتنسيق يحترم فيها كلّ فريق الفريق الآخر، ولا يُسيء إليه أو إلى مقدّساته ورموزه وخصوصيّاته.

وكذلك ندعو كلَّ العاملين للإسلام إلى رصد هذا التقارب وما يحمله من إيجابيّات في محاولةٍ لتعميمه في الساحة الإسلامية كلّها، وحتى في الساحة الوطنية، وملاحقة ما فيها من سلبيّات للعمل على معالجتها بالطريقة التي تحفظ توازن الساحة الإسلامية والوطنية على السواء؛ لأنَّ أيّ تقارب يُفضي إلى التعهّد بعدم الاعتداء، ويجمع صفوف المسلمين، ولا يفرّقها، يمثّل حمايةً للدين الحنيف وللمجموعات الإسلامية وللمجتمع المدني كلِّه.

وقد شهد النبيّ ﷺ حلف الفضول الذي يمنع بموجبه أيّ فريق من الاعتداء على فريقٍ آخر، ويجعل القبائل تقف مع المظلوم ضدّ الظالم، وقال: «ولو دُعيت إلى مثله في الإسلام لأجبت»[1]... فكيف إذا كانت المسألة تتّصل بحفظ المسلمين، ورصِّ صفوفهم، ومنع الفتنة التي يُروِّج لها المستكبرون من أن تأكل الأخضر واليابس في واقعهم.

إنَّ الأساس الذي يجمع المسلمين هو الوثيقة الإلهية المتمثِّلة في القرآن الكريم وفي سُنّة النبيّ ﷺ. قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۝٥٩﴾ [النساء: ٥٩]، فالآية المباركة تعطي صفة المرجعية عند الاختلاف إلى الله والرسول ﷺ وليس إلى أولي الأمر؛ لأنّه قد يقع الاختلاف في نفس أولي الأمر وإمامتهم، فالمرجع حينئذ يكون إلى قول الله وسُنّة رسول الله ﷺ[2].

(١) البداية والنهاية: ج ٢ ص ٢٩٢؛ سبل الهدى والرشاد: ج ٢ ص ٢٠٩؛ السيرة النبوية، محمّد أبو شهبة: ج ١ ص ٢١٣؛ صحيح السيرة النبوية للألباني: ص ٥٣ و ٣٦.

(٢) روى الكليني ـ بسند حسن ـ عن بُرَيْد بن معاوية، قال: تَلَا أَبُو جَعْفَرٍ (الباقر) عليه السلام ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ تَنَازُعاً فِي الأَمْرِ فَأَرْجِعُوهُ إِلَى اللهِ وَإِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ، ثُمَّ قَالَ: كَيْفَ يَأْمُرُ بِطَاعَتِهِمْ وَيُرَخِّصُ فِي مُنَازَعَتِهِمْ، إِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ لِلْمَأْمُورِينَ الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾»، الكافي: ج ٨ ص ١٨٤ـ١٨٥ ح ٢١٢.

ومن الأهمّية بمكان أن تنزل هذه الآية إلى الواقع العملي، بحيث نخرج من حالة الشعار والعناوين العامة إلى ساحة التلاقي حول النقاط المشتركة ـ وهي كثيرة ـ للعمل في سبيل تجسيد العزّة الإسلامية في صعيد الواقع.

ولذلك، فإنّنا نؤكّد ضرورة أن يستتبع أيّ تقارب على المستوى السياسي والاجتماعي العام محاولات حثيثة لتأكيد الوحدة انطلاقاً من الخطوط الثقافية والفكرية والعقائدية التي أكّدها القرآن الكريم والسنّة النبوية الشريفة؛ لأنَّ ذلك هو الذي يحمي أيّة حركة للتقارب والتعاون، ويؤصّل انطلاقاتها ويفتح الآفاق الرحبة لتحقيق أهدافها وغاياتها.

وبدورنا نرحّب بأيِّ سعي جدّي لمواجهة الجماعات والحركات والتوجّهات التكفيرية وصُنّاع الأساطير والخرافات، ومنتجي الغلوّ والتطرّف داخل الساحة الإسلامية الشيعية والسنّية، لأنّنا نرى في هؤلاء الخطر الداهم على الإسلام والمسلمين وعلى الأمّة كلِّها والدِّين كلّه، وقد عانينا من هؤلاء كثيراً في محاولاتهم المستمرّة لتضليل وتفسيق وتكفير مَن يختلف معهم في الرأي، ونريد لأيِّ توجّه يسعى لمواجهة هؤلاء أن ينطلق من قاعدة إسلامية أصيلة يتوحّد فيها السنّة والشيعة، وينزل فيها الدعاة والعاملون إلى الميدان ليواجهوا كلَّ أساليب السبِّ والشتم واللعن والتكفير بحملة ثقافية إسلامية مدروسة تستهدي كلام الإمام عليّ عليه السلام: «**احْصُدِ الشَّرَّ مِنْ صَدْرِ غَيْرِكَ بِقَلْعِهِ مِنْ صَدْرِكَ**»(١).

إنّ ثمّة مبدأ في العلاقات الدولية أكّده الإسلام ألا وهو: التحالف واحترام المواثيق والعهود في العلاقات بين الأفراد والجماعات والدول. شريطة أن ينطلق هذا التحالف على أساسٍ متين في احترام حقوق الإنسان والدفاع عن المظلومين.

(١) نهج البلاغة: قصار الحكم ١٧٨.

يقول الله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠ ﴾ [النحل: ٩٠]. وبهذه المبادئ جاء القرآن؛ فإنّه يأمر بالعدل والإحسان، وينهى عن العدوان على كرامة الإنسان ونفسه وماله وعِرضه، وجعل مهمّة تحقيق العدل وحِفْظ الأمن مسؤوليّة الدولة، كما هي مسؤوليّة كلّ إنسان في حياته المجتمعية..

والرسول ﷺ ـ الداعية إلى هذه المبادئ ـ نراه يعمل على الدفاع عن الحقّ ونصرة المظلوم، كفردٍ في مجتمع، وكنبيٍّ مبلِّغٍ للرسالة، وكحاكمٍ منفِّذ للشريعة والقانون.

إذن إنّنا من منطلق حلف الفضول، ننظر إلى أيِّ توافق يتمُّ على الساحة الإسلامية وإلى أيِّ تقارب، وخصوصاً بين السنّة والشيعة، وندعو كلَّ العلماء والمثقّفين الغيارى إلى رصد هذا التقارب وما يحمله من إيجابيات في محاولة لتعميمه في الساحة الإسلامية كلّها، وحتى في الساحة الوطنية، وملاحقة ما فيها من سلبيّات للعمل على معالجتها بالطريقة التي تحفظ توازن الساحة الإسلامية والوطنية على السواء؛ لأنَّ أيَّ تقارب يُفضي إلى التعهّد بعدم الاعتداء ويجمع صفوف المسلمين ولا يفرّقها يمثّل حماية للدين الحنيف وللمجموعات الإسلامية وللمجتمع المدني كلِّه.

ونحن في عصرنا هذا، في حاجة ماسّة إلى ولادة حِلْف عربي/ إسلامي للغرض نفسه، وإن كانت هناك هيئات ومؤسّسات من وظائفها رفع الظلم عن المظلومين، وكفّ الظالم عن ظلمه، وحماية الضعيف والفقير، ولكنَّ هذه الهيئات فُرِّغتْ من مضمونها، وتسير في ركاب القويّ وإن كان ظالماً معتدياً، وتتخلّى عن الضعيف وإن كان مظلوماً مُعتدى عليه! ومن هنا فإنّ تشكيل حلف جديد أهون وأيسر من إصلاح هذه الهيئات القائمة.

وإذا كان حلف الفضول قد تَشكَّل بسبب وقوع ظلم من فردٍ واحد على فردٍ واحد، فكيف بنا اليوم والظلم يقع من شعب على شعب، ومن دولة على دولة، ومن أمّة على أمّة، ومن حكّام طغاة على شعوب بأكملها..

حقن الدماء

ومن مظاهر تعاون النبيّ الكريم ﷺ مع قومه قبل البعثة مساعدته إياهم في حقن دمائهم، ورفع التنازع بينهم، ودفع شرّ مستطير كان سيحيق بهم، وذلك: أنّ قريشاً بَنَت الكعبة وتقاسمتها أرباعاً، فلمّا انتهوا إلى موضع الحجر الأسود تنازعت القبائل أيّها يضعه موضعه حتى كادوا يقتتلون، ثم اتّفقوا على أن يحكّموا أول داخل عليهم من بني هاشم.

فطلع رسول الله ﷺ، فقالوا: هذا الأمين قد جاء فحكّموه فبسط رداءه، ووضع الحجر فيه، ثمَّ قال ﷺ: يأتي من كلّ ربع من قريش رجل، فكانوا عتبة بن ربيعة بن عبد الشمس، والأسود بن المطلب من بني أسد بن عبد العُزّى، وأبو حذيفة بن المغيرة من بني مخزوم، وقيس بن عدي من بني سهم، فرفعوه ووضعه النبيّ ﷺ في موضعه[1].

وروى الكليني بسنده إلى سعيد بن عبد الله الأعرج، عن أبي عبد الله (الصادق) عليه السلام قال: «**إِنَّ قُرَيْشاً فِي الْجَاهِلِيَّةِ هَدَمُوا الْبَيْتَ فَلَمَّا أَرَادُوا بِنَاءَهُ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ وَأُلْقِيَ فِي رُوعِهِمُ الرُّعْبُ حَتَّى قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ: لِيَأْتِ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِأَطْيَبِ مَالِهِ وَلا تَأْتُوا بِمَالٍ اكْتَسَبْتُمُوهُ مِنْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ أَوْ حَرَامٍ فَفَعَلُوا فَخُلِّيَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ بِنَائِهِ فَبَنَوْهُ حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى مَوْضِعِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ، فَتَشَاجَرُوا فِيهِ أَيُّهُمْ يَضَعُ الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ فِي مَوْضِعِهِ حَتَّى كَادَ أَنْ يَكُونَ بَيْنَهُمْ شَرٌّ، فَحَكَّمُوا أَوَّلَ مَنْ**

(١) السيرة النبوية: ج ١ ص ٢٠٩ـ٢١٤؛ فتح الباري: ج ٣ ص ٤٤١ و ج ٧ ص ١٤٦؛ الروض الأنف: ج ١ ص ٢٢١ـ٢٢٩.

يَدْخُلُ مِنْ بَابِ الْمَسْجِدِ، فَدَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَلَمَّا أَتَاهُمْ، أَمَرَ بِثَوْبٍ فَبَسَطَ ثُمَّ وَضَعَ الْحَجَرَ فِي وَسَطِهِ، ثُمَّ أَخَذَتِ الْقَبَائِلُ بِجَوَانِبِ الثَّوْبِ فَرَفَعُوهُ، ثُمَّ تَنَاوَلَهُ ﷺ فَوَضَعَهُ فِي مَوْضِعِهِ فَخَصَّهُ اللهُ بِهِ»[1].

وروى داود بن سرحان، عن أبي عبد الله (جعفر الصادق) عليه السلام قال: «إنّ رسول الله ساهم قريشاً في بناء البيت، فصار لرسول الله ﷺ من باب الكعبة إلى النصف ما بين الركن اليماني إلى الحجر الأسود»[2].

لقد «جاء إسهام الرسول ﷺ في القضايا الكبرى التي عاشتها مكة آنذاك متنوِّعاً شاملاً مغطِّياً شتى مساحات العمل البشري الجماعي، وكأنَّه أُريد له أن يجرِّب كلَّ شيء، وأن يسهم عاملاً في كلِّ اتجاه، وأن يبنيَ عبر نشاطاته المتنوِّعة جميعاً شخصيّة قادرة على التصدّي لكلِّ مشكلة، والإسهام الإيجابي الفعَّال في كلِّ ما من شأنه أن يعيد حقّاً، أو يُقيم عدلاً... وكان إسهامه ﷺ في بناء الكعبة، وحلِّ مشكلة وضع الحجر الأسود التي كانت تؤدِّي إلى فتنة، اثنين من بين عدّة أنشطة متنوّعة قام بها الرسول ﷺ فأكسبته خبرة في مجال التعامل مع الأحداث»[3].

وهذا يدفع المسلمين الذين يعيشون في مثل تلك الظروف ـ في أيِّ زمان أو مكان ـ إلى التمسّك بعقيدتهم وعدم التفريط في ثوابت وأصول الإسلام مع الالتزام بمكارم الأخلاق التي تؤسّس وترسّخ تلك العلاقة مع الآخر بما يضمن السِّلم والاستقرار الاجتماعي، ويكشف عن حقيقة الإسلام وسماحته أمام العالمين.

❀ ❀ ❀

(١) الكافي: ج ٤ ص ٢١٧.
(٢) من لا يحضره الفقيه: ج ٢ ص ٢٤٧ ح ٢٣٢٣.
(٣) دراسة في السيرة، عماد الدين خليل: ص ٤٨ـ٤٩.

تعايش النبيّ في مكة بعد البعثة

بعد نزول الوحي لم يترك الرسول ﷺ ولا أصحابه الأوائل ممَّن آمن بدعوته أشغالهم، كما لم يحبسوا أنفسهم عن الناس وعن التجارة والسفر رغم ما عانوه من اضطهاد قريش، ولم يرفض المسلمون التعايش مع الآخر.

وكلّما وفد عليه ﷺ أحدُ أبناء القبائل العربية، وأسلم على يده، يأمره بالعودة إلى قومه المشركين ليعيش معهم، هكذا فعل مع ضَماد الأزْدي، وعمرو بن عبْسة السُّلمي، والطفيل بن عمرو الدوسي، وأبي ذر الغفاري، كما ذكرت جميع كتب السيرة، فالرسول ﷺ هو أوّل مَن دعا إلى العيش المشترك مع الآخرين.

ولقد استوعب المسلمون الأوائل ـ من خلال تعايش الرسول الكريم ﷺ لأهل مكة والقبائل التي حولها ـ أهمية إجادة فنّ التعايش في حياتهم أيضاً؛ لأنّها الأسلوب الأمثل للدعوة لمكارم الدين والخلق، وهذا يقتضي منهم تطبيق جملة من القواعد:

القاعدة الأولى: إيجاد منطقة مشتركة مع الآخرين، الذين يعيشون معهم في بلدٍ واحد.

القاعدة الثانية: البحث عن كلِّ علم وعمل يساعدهم على أن يجدوا منطقة مشتركة معهم.

القاعدة الثالثة: الاندماج في مجتمعهم وعدم العزلة؛ بحيث لا يختلفون في

طريقة كلامهم وحديثهم عن لغة مجتمعهم، مع عدم فقدانٍ لهويّتهم.

القاعدة الرابعة: عدم رفضهم لأيّة فكرة بشكلٍ مطلق؛ من أجل أن يحافظوا ـ من خلال ذلك ـ على ديناميكية المناورة والتّفكير والمرونة.

القاعدة الخامسة: أن لا يحوِّلوا المخالف لهم في الرأي إلى عدوّ.

القاعدة السادسة: أن يكونوا صادقين في تجميع الناس وإرادة الحقّ؛ فهناك مَنْ يريد الحقّ وفقاً لهواه، بحيث يضع الحقّ في كفّة وهواه في كفّة، ويرجِّح هواه مسبقاً.

القاعدة السابعة: احترام الناس لكسب قلوبهم.

القاعدة الثامنة: حبّ الخير للجميع ولو حدث خلاف بينهم.

القاعدة التاسعة: التعايش لا يعني الذوبان.

ومن خلال تطبيق المسلمين لهذه القواعد نرى أنّ مشركي قريش هم مَنْ قاموا بنبذ المسلمين ورفض التعامل معهم، وفرضوا حصاراً على المسلمين في شِعب أبي طالب ثلاث سنوات، حتى اشتدَّ بهم البلاء، ولجأ الصغار إلى أكل ورق الشجر، ووصل الظلم مداه إلى أن كره عامة قريش ما أصاب المسلمين، وأظهروا كراهيّتهم لصحيفتهم الظالمة، فنقضوها[1].

ويصف الإمام علي عليه السلام هذه المرحلة الصعبة ـ كما رواها أبو جعفر الإسكافي في كتابه «نقض العثمانية»، قال عليه السلام: «**فتعاقدوا أن لا يعاملونا ولا يناكحونا، وأوقدت الحرب علينا نيرانها، واضطرونا إلى جبل وعر، مؤمننا يرجو الثواب، وكافرنا يحامي عن الأهل، ولقد كانت القبائل كلّها اجتمعت عليهم، وقطعوا عنهم المارة والميرة، فكانوا يتوقّعون الموت جوعاً، صباحاً ومساءً، لا**

(١) السيرة النبوية، ابن كثير: ج ٢ ص ٤٧.

يَرَوْن وجهاً ولا فرجاً، قد اضمحلّ عزمهم وانقطع رجاؤهم»[1].

قال السهيلي: «وفي الصحيح: أنّهم جهدوا حتى كانوا يأكلون الخَبَط وورق السَّمُر، حتى إنَّ أحدهم ليضع كما تضع الشاة، وكان فيهم سعد بن أبي وقاص، رُوِي أنّه قال: لقد جعت حتى أنّي وطئت ليلة على شيء رطب فوضعته في فمي، وبلعته، وما أدري ما هو إلى الآن.

وكانوا إذا قدمت العير مكة يأتي أحدهم السوق؛ ليشتري شيئاً من الطعام لعياله، فيقوم أبو لهب ـ عدوّ الله ـ فيقول: «يا معشر التجار: غالوا على أصحاب محمّد، حتى لا يدركوا معكم شيئاً، فقد علمتم مالي ووفاء ذمّتي، فأنا ضامن أن لا خسار عليكم»، فيزيدون عليهم في قيمتها أضعافاً حتى يرجع إلى أطفاله، وهم يتضاغون من الجوع، وليس في يديه شيء يطعمهم به، ويغدو التجار على أبي لهب، فيربحهم فيما اشتروا من الطعام واللباس، حتى جهد المؤمنون ومَنْ معهم جوعاً وعرياً...»[2].

لقد وجد المسلمون من صنوف العذاب ألواناً على أيدي مشركي قريش، إذ وثبت كلّ قبيلة على مَن فيها من المسلمين فجعلوا يحبسونهم ويعذّبونهم بالضرب والجوع والعطش وبرمضاء مكة إذا اشتدّ الحرّ ليفتنوهم عن دينهم. وكان رسول الله ﷺ يحثّهم على الصبر وقوّة التحمّل إلى أن يجعل الله لهم مخرجاً.

ومع كلِّ هذه المآسي والموبقات ـ من جانب قريش ـ لم يهجر الرسول ﷺ الكعبة، ولم يمنعه وجود الشرك وكثرة الأصنام فيها عن ارتيادها..

---

(١) شرح نهج البلاغة للمعتزلي: ج ١٣ ص ٢٥٤.

(٢) الروض الأنف: ج ٢ ص ١٢٧ـ١٢٨.

يقول خباب بن الأرت[1]: أَتَيْتُ النبيّ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً، وَهُوَ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، وَقَدْ لَقِينَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ شِدَّةً فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلا تَدْعُو اللهَ؟ فَقَعَدَ وَهُوَ مُحْمَرٌّ وَجْهُهُ فَقَالَ: «لَقَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ لَيُمْشَطُ بِمِشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ عِظَامِهِ مِنْ لَحْمٍ أَوْ عَصَبٍ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُوضَعُ الْمِنْشَارُ عَلَى مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِاثْنَيْنِ، مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَلَيُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ مَا يَخَافُ إِلاَّ اللهَ»[2].

ولمّا سمع المسلمون ذلك تقوَّوْا وازدادوا في الثبات على العقيدة والصبر على البلاء.. فهذا بلال بن رباح، يُوضَع الحجر العظيم على صدره، ويُقال له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمّد وتعبد اللات والعزّى، فيقول وهو في ذلك البلاء: «أحد أحد». فمرَّ به أبو بكر يوماً فاشتراه وأعتقه[3].

وفي ظلِّ هذه الظروف القاسية قد يضعف بعضهم ويتراجع عن عقيدته جرّاء التعذيب الشديد، وكانت أسرة آل ياسر ممّن يُضرب المثل فيما لاقاه المستضعفون من الابتلاءات في تاريخ الإسلام.

فقد كان بنو مخزوم يخرجون بهم، إذا حميت الظهيرة، فيعذّبونهم برمضاء مكة. ومرَّ بهم الرسول ﷺ ذات مرة وهم يُعذبون، فقال لهم: «أَبْشِروا ـ آلَ عمَّارٍ وآلَ ياسرٍ ـ فَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الجَنَّةُ»[4].

---

(١) هو خباب بن الأرت بن جندلة بن سعد بن خزيمة التميمي. سُبي في الجاهلية، فبيع بمكة. وكان مولى لأم أنمار الخزاعية، ثم حالف بني زهرة. كان يعمل حدّاداً في صناعة الأسنّة، وبخاصة السيوف، وكان من السابقين الأولين إلى الإسلام. وعندما أظهر إسلامه لاقى صنوفاً شتى من العذاب في المال والنفس. وكانوا يأخذون بشعر رأسه فيسحبونه بشعر رأسه ويلوون عنقه بعنف، وأضجعوه مرات عديدة على صخور ملتهبة، وأوقدوا ناراً ووضعوه عليها فما أطفأها إلا شحم ظهره، حتى بردت النار. وكانوا يضجعونه على الرضف وهي الحجارة المحماة، ومع ذلك لم ينالوا منه ما أرادوا من الردة، بل كان ثابتاً ثبوت الجبال على عقيدته.

(٢) صحيح البخاري: ج ٣ ص ١٣٢٢ ح ٣٦٣٩.

(٣) السيرة النبوية، ابن هشام: ج ١ ص ٣١٧.

(٤) المستدرك على الصحيحين: ج ٣ ص ٤٣٨ ح ٥٦٦٦؛ المعجم الأوسط: ج ٢ ص ١٤١ ح ١٥٠٨؛ جامع

وكان أول مَنْ استشهد في سبيل الله من هذه الأسرة خاصة، وفي الإسلام عامة أمّ عمار ـ سمية بنت خباط ـ؛ فقد طعنها أبو جهل بحربة في قلبها فماتت من جرّاء الاعتداء الآثم[١].

ومات ياسر في العذاب، ورُمِي ابنه عبد الله فسقط[٢].

وتفنّنوا في إيذاء عمّار، حتى أجبروه على أن يتلفّظ بكلمة الكفر بلسانه. وذكر جمهور المفسّرين أنّ من أسباب نزول الآية الكريمة: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [النحل: ١٠٦ ـ ١٠٩] هو موقف عمّار بن ياسر هذا[٣].

نعم، لقد أضمر الإيمان عمّار وأظهر الكفر هرباً من التعذيب والتنكيل؛ إذ أخذه المشركون فلم يتركوه حتى سبَّ النبيّ ﷺ وذكر آلهتهم بخير، ثمّ تركوه، فلمّا أتى رسولَ الله ﷺ قال: «ما وراءك؟» قال: شرٌّ يا رسول الله، ما تركت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير. قال: «**كيف تجد قلبك؟**» قال: مطمئناً بالإيمان. قال: «**إن عادوا فعد**»[٤]، وفي شأنه نزل قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا ﴿١٠٦﴾ ﴾ [النحل: ١٠٦].

الأحاديث: ج ١٩ ص ٢٣٦ ح ١٤٣١٣.

(١) مصنف ابن أبي شيبة: ج ٧ ص ٢٥٠ ح ٣٥٧٧٠؛ جامع الأحاديث: ج ١٨ ص ٢١١ ح ١٢٠٧١.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة: ج ٦ ص ٦٣٩ رقم ٩٢١٤.

(٣) الدر المنثور: ج ٥ ص ١٧١؛ الكشاف: ج ٢ ص ٥٩٤؛ تفسير البغوي: ج ٣ ص ٨٦؛ تفسير البيضاوي: ج ٣ ص ٤٢٢؛ تفسير الطبري: ج ١٤ ص ١٨١.

(٤) المستدرك على الصحيحين: ج ٢ ص ٣٨٩.

قال ابن حجر: «كان (عمّار) عربياً عنسياً، ما وقع عليه سبي، وإنّما سكن أبوه ياسر مكّة، وحالف بني مخزوم، فزوَّجوه سميّة، وهي من مواليهم، فولدت له عمّاراً، فيحتمل أن يكون المشركون عاملوا عمّاراً معاملة السبي لكون أمّه من مواليهم، داخلاً في رقّهم»[1].

وقال ابن إسحاق: «وكان ياسر عبداً لبني بكر من بني الأشجع بن ليث، فاشتروه منهم، فزوَّجوه سميّة أم عمّار، فولدت عمّاراً، وكانت سميّة أَمَة لهم فأعتقوا سميّة وعمّاراً وياسراً»[2].

وكذلك أعطى الرسول ﷺ نموذجاً إنسانياً سامياً للتعايش مع الآخر في ظلّ الاضطهاد والتعذيب، إذ لم يعاملهم بالمثل، بل قابل السيّئة بالحَسَنة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤]، فكان أهل مكّة ـ رغم تكذيبهم واضطهادهم له ـ يأتمنونه على أشيائهم الثمينة والنفيسة.

وقد تجلّى صدق المعاملة والأمانة حين هاجر رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة، فأمره أن يتخلّف بعده بمكّة ريثما يؤدّي عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس، إذ لم يكن أحدٌ من أهل مكة له شيء يخشى عليه إلا استودعه عند رسول الله ﷺ لما يعلمون من صدقه وأمانته[3]؛ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

إنّ المعاملة الحسنى في مواجهة الإساءة، تجعل العدوَّ صديقاً، وتكون باباً من أبواب الدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين، كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝٣٤﴾ [فصلت: ٣٤] إنّ

---

(١) فتح الباري: ج ٤ ص ٤١٢.

(٢) سيرة ابن إسحاق: ج ٤ ص ١٧٢.

(٣) سنن البيهقي: ج ٦ ص ٢٨٩ ح ١٢٤٧٧؛ معرفة السنن والآثار: ج ٥ ص ١١٠؛ أسد الغابة: ج ٤ ص ١١٣؛ تلخيص الحبير: ج ٣ ص ٩٨.

نموذج (الصبر على البلاء في التعايش مع الآخر) يُعدّ مثالاً يُحتذى في كلّ زمان ومكان، خاصة عندما يكون المسلمون أقلّية في بلاد يعمل المتشدّدون فيها على تشويه صورة الإسلام والمسلمين، ويحاولون اضطهادهم وإقصاءهم، حينها يتذكّر المسلمون أسلافهم فيقتدون بهم في التمسّك بثوابت الدين الحنيف مع بسط ثقافة التعايش السلمي ومكارم الأخلاق في العالمين.

وفي واقعنا الذي نعيشه نحن بحاجة إلى (مشروع وطني واحد)، وحين يتعايش الناس مع اختلافاتهم في وطنٍ واحد، فلا بدّ لهم من مشروع وطنيّ يجمعهم، وينظّم الحياة المشتركة بينهم، ويمنع تحوّل الخلافات إلى صراع.

إنّ المملكة العربية السعودية وطن يتألّف من مجموعة من الطوائف والمذاهب، هذا هو واقعه. ولكلّ طائفة من الطوائف مساحتها الخاصة، تمارس فيها خصوصيّتها الدينية ضمن ساحة المجتمع العامة. وعلى الدولة أن تمارس سلطتها في المساحة المشتركة التي تجمع جميع هذه الطوائف والمذاهب، وهذا ما لم يتحقّق حتى الآن!

فالعلاقة بين الوطن والطوائف تتصوَّر في شكلين:

الشكل الأول: أن تكون العلاقة علاقة صراع، ويحصل ذلك حين تريد السلطة توسيع المساحة الوطنية المشتركة على حساب خصوصيات كلّ طائفة، أو حين تريد الطوائف توسيع مساحتها الخاصة على حساب المساحة المشتركة.

والشكل الثاني: أن تكون العلاقة علاقة توافق وتكامل، وذلك حين تكون الحدود واضحة بين المساحة المشتركة والمساحات الدينية الخاصة، ويرضى

كلّ من الطرفين بمساحته المحدّدة.

والشكل الثاني يحتاج إلى دستور قانوني واضح يحدّد مساحة الطوائف الخاصة بأمور العبادة والأحوال الشخصية. وهذا يعني أنّ كلّ ساحات المجتمع الأخرى هي ساحات وطنية مشتركة.

ولكن للأسف، إنّ الأعراف القبلية قضت بتوزيع أهمّ المناصب السياسية والإدارية توزيعاً طائفيّاً، فوسّعت مساحة الطوائف خارج نطاق العبادة والأحوال الشخصية، بحيث تداخلت مع المساحة الوطنية المشتركة، بل وتغلّبت عليها.

فهل يُتاح لنا أن نبنيَ دولة معاصرة تحفظ حقوق الإنسان وتحميَ حرياته، وتطلق نشاطه؟ أم تظلّ الأمور خاضعة للصراعات والتجاذبات الإقليمية والعالمية؟

كلُّنا أمل أنّ المستقبل للإنسان وللقيم الإنسانيّة الخالدة، قيم الحقّ والعدالة والأخلاق، مهما طال الزمن وكثرت التضحيات. ولنتعلّم من رسول الإنسانية والمحبّة ﷺ ما يصون كرامة الإنسان وعزّته وحريّته.

❀ ❀ ❀

تعايش المسلمين في الحبشة

إنّ هجرة الصحابة الأولى والثانية إلى الحبشة تمثِّل أصدق تواصل حضاري بين المسلمين، وغير المسلمين، وهي قبل أن تكون مثالاً راقياً في التعاون والتعايش والتسامح، بين الأديان السماوية، ستبقى مدى الدهر مفخرة لأفريقيا عامة، وللحبشة خاصة؛ لِمَا امتازت به هذه الديار في عهد حاكمها العادل النجاشيّ (أسحمة) من عدل، وتقدير لحقوق الإنسان؛ إذ كانت أوّل دولة في التاريخ الإنساني، تمنح حقّ اللجوء السياسي، لمن هاجر إليها واحتمى بها، من الاضطهاد الديني.

ونحن اليوم في بلادنا العربية والإسلامية، أشدّ ما نكون حاجةً إلى إرساء قيم التسامح الديني، ونبذ العنف، والتعصّب القومي، وبسط حرية الاعتقاد، وتقدير مكانة القيادات الدينية، وكرامة الإنسان، أيّاً كان انتماؤه المذهبي، والقومي، والعرقي.

نعم، كانت هجرة الصحابة إلى الحبشة بتوجيه من النبيّ ﷺ؛ لتكون هذه الهجرة عاملاً مهمّاً في توثيق عرى الترابط التاريخي بين الحبشة والإسلام، والحبشة والتاريخ العربي، إذ لا يمكن فصل الحبشة حضارياً وعقائدياً عن التاريخ العربي والإسلامي، وهنا من المستحسن الإشارة إلى ما يراه بعض المؤرِّخين من أنّ هجرة الصحابة

فراراً من أذى قريش واضطهادهم، كانت إلى السودان[١]، وأنّ السودان هو المعني بقوله ﷺ: «لَوْ خَرَجْتُمْ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ، فَإِنَّ بِهَا مَلِكًا لا يُنَالُ عِنْدَهُ أَحَدٌ بِظُلْمٍ، فَالْحَقُوا بِبِلادِهِ، حَتَّى يَجْعَلَ اللهُ لَكُمْ فَرَجاً أَوْ مَخْرَجاً، مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ»[٢].

وحدة أصل الأديان (الحبشة)

لقد كانت الحبشة ـ كقريش ـ مجتمعاً غير مسلم، ولكنّه كان مظنّة العدل والحماية لكلِّ مَنْ يلجأ إليه من المستضعفين وذوي الدعوات النافعة الصالحة، التي تبني ولا تهدم، وتحيي النفوس ولا تفنيها، وهذا ما دعا رسول الله ﷺ أن يأذن لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة مخافةَ الفتنة وفراراً إلى الله بدينهم، فكانت أوّل هجرة في الإسلام، وكان جميع مَن لحق بأرض الحبشة نيفاً وثمانين رجلاً وإحدى عشرة امرأة[٣].

وحين نزلوا بالحبشة استقبلهم النجاشيّ خير استقبال وأحسن وفادتهم، فعن أمّ سَلَمَة قالت: «لَمَّا نَزَلْنَا أَرْضَ الْحَبَشَةِ، جَاوَرْنَا بِهَا خَيْرَ جَارٍ النجاشيّ، أَمِنَّا عَلَى دِينِنَا، وَعَبَدْنَا اللهَ تَعَالَى، لا نُؤْذَى، وَلا نَسْمَعُ مَا نَكْرَهُ»[٤].

وكانت الحبشة متجراً لقريش فدرسوا طريقها، وعرفوا ملكها النجاشيّ، ولذلك سعوا متفائلين في طلب من هاجر من المسلمين، وأرسلوا عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص، فحاولا استمالة النجاشيّ وتأليبه على تلك الفئة

(١) إنّ بلاد الحبشة المنصوص عليها في كتب السيرة النبوية، والتاريخ الإسلامي، كما يرى بعض المؤرخين ما هي إلا بلاد السودان الحالي، الأمر الذي يفهم منه ـ إن لم ينص على ذلك صراحة ـ أنّ النجاشيّ الذي آوى الصحابة في هجرتهم الأولى، والثانية، ونعت النبي ﷺ أرضه بالعدل، ما هو إلا ملك سوداني، وأنّ بلالاً الحبشي (رض)، مؤذّن رسول الله ﷺ وأمّ أيمن بركة الحبشية، حاضنته، بعد وفاة أمّه آمنه بنت وهب، ما هما في الحقيقة إلا سودانيان، بالمعنى الجغرافي المعروف.

(٢) سنن البيهقي: ج ٩ ص ٩.

(٣) السيرة النبوية: ج ١ ص ٣٤٥.

(٤) مسند أحمد: ج ١ ص ٢٠٢ ح ١٧٤٢.

المسلمة توطئة لأخذهم وإعادتهم إلى مكة، إلا أنّ النجاشيّ رفض وقال لبطارقته:

«لا هَا اللهِ، أيْمُ اللهِ، إِذَنْ لا أُسْلِمُهُمْ إِلَيْهِمَا، وَلا أُكَادُ قَوْماً جَاوَرُونِي، وَنَزَلُوا بِلادِي، وَاخْتَارُونِي عَلَى مَنْ سِوَايَ حَتَّى أَدْعُوَهُمْ فَأَسْأَلَهُمْ مَاذَا يَقُولُ هَذَانِ فِي أَمْرِهِمْ، فَإِنْ كَانُوا كَمَا يَقُولانِ أَسْلَمْتُهُمْ إِلَيْهِمَا وَرَدَدْتُهُمْ إِلَى قَوْمِهِمْ، وَإِنْ كَانُوا عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ مَنَعْتُهُمْ مِنْهُمَا، وَأَحْسَنْتُ جِوَارَهُمْ مَا جَاوَرُونِي»(١).

وعندما سأل النجاشيّ المسلمين، بيّن له جعفر بن أبي طالب في خطاب بليغ الحال التي وصل إليها أهل مكة من الانحلال الأخلاقي والديني، وأخبره أنّ الله تعالى بعث رسولاً من بينهم، يتّصف بكلّ خُلُق حسن وخصلة حميدة، يدعوهم إلى الفضيلة وينقذهم من الرذيلة، ويأمرهم بترك عبادة الأوثان إلى عبادة الله وحده، وزاد جعفر:

«وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا، فَعَذَّبُونَا، وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا، لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الْخَبَائِثِ، فَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَشَقُّوا عَلَيْنَا، وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا، خَرَجْنَا إِلَى بَلَدِكَ، وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ؛ وَرَغِبْنَا فِي جِوَارِكَ، وَرَجَوْنَا أَنْ لا نُظْلَمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ».

ثم تلا عليه صدر سورة «مريم»، تقول السيّدة أم سَلَمَة (رضي الله عنها): «فَبَكَى ـ وَاللهِ ـ النجاشيّ حَتَّى أَخْضَلَ لِحْيَتَهُ، وَبَكَتْ أَسَاقِفَتُهُ حَتَّى أَخْضَلُوا مَصَاحِفَهُمْ حِينَ سَمِعُوا مَا تَلا عَلَيْهِمْ».

كلّ ذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾(٢). فهي تدعو كذلك إلى التحلّي بمحاسن

---

(١) مسند أحمد: ج ١ ص ٢٠٢ ح ١٧٤٢.

(٢) ٥٦ الأنبياء: ٢٥.

الأخلاق والتواصل والتعايش مع الآخر في سلام، قال جعفر عليه السلام: «وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنْ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنْ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ»[1].

بعد أن استمع النجاشيّ إلى كلّ ذلك قال: «إِنَّ هَذَا ـ وَاللهِ ـ وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ. انْطَلِقَا فَوَاللهِ لا أُسْلِمُهُمْ إِلَيْكُمْ أَبَداً، وَلا أُكَادُ».

وأراد عمرو بن العاص أن يغدر بالمسلمين عن طريق الحيلة والمكر، فقال للنجاشي: «إِنَّهُمْ يَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ قَوْلاً عَظِيماً! فَأَرْسِلْ إِلَيْهِمْ فَاسْأَلْهُمْ عَمَّا يَقُولُونَ فِيهِ».

ووقف جعفر أمام النجاشيّ يستعلمه حال عيسى عليه السلام عندهم؟!!

فقال جعفر بن أبي طالب: «نَقُولُ فِيهِ الَّذِي جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا: هُوَ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَرُوحُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ الْعَذْرَاءِ الْبَتُولِ».

تقول السيّدة أم سَلَمَة: «فَضَرَبَ النجاشيّ يَدَهُ إِلَى الأَرْضِ، فَأَخَذَ مِنْهَا عُوداً، ثُمَّ قَالَ: مَا عَدَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَا قُلْتَ هَذَا الْعُودَ،... اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ سُيُومٌ بِأَرْضِي (وَالسُّيُومُ الآمِنُونَ)؛ مَنْ سَبَّكُمْ غُرِّمَ، ثُمَّ مَنْ سَبَّكُمْ غُرِّمَ، فَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي دَبْراً ذَهَباً وَأَنِّي آذَيْتُ رَجُلاً مِنْكُمْ». (وَالدَّبْرُ بِلِسَانِ الْحَبَشَةِ الْجَبَلُ)

تقول أم سَلَمَة: «فَخَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ مَقْبُوحَيْنِ، مَرْدُوداً عَلَيْهِمَا مَا جَاءَا بِهِ، وَأَقَمْنَا عِنْدَهُ بِخَيْرِ دَارٍ مَعَ خَيْرِ جَارٍ»[2].

وفي ذلك إشارة للمسلمين في كلّ زمان ومكان، بأن يخاطبوا غيرهم بما يقرّبهم

---

(١) مسند أحمد: ج ١ ص ٢٠٢ ح ١٧٤٢.

(٢) سيرة ابن إسحاق: ج ٤ ص ١٩٣؛ سيرة ابن هشام: ج ١ ص ٢٢٤؛ ذخائر العقبى: ص ٢٠٩؛ الخرائج للراوندي: ج ١ ص ١٣٣.

ويحبِّبهم فيهم، لا كما يفعل المتشدِّدون في هذا العصر مِمَّن يلجأون إلى دول غير مسلمة، ويصرّون على التأكيد بأنّ أديان تلك الدول باطلة، ويحاولون فرض رؤيتهم للإسلام في تلك الدول غير آبهين لظروف أهلها وبيئتهم وعقائدهم التي نشأوا عليها، ممّا يشوِّه صورة الإسلام في العالم، ويُعطي مبرِّراً لمتعصِّبي الديانات الأخرى وكارهي الإسلام، أن يروِّجوا صوراً مغلوطة عن الإسلام والمسلمين.

إنّ نموذج الحبشة الرائع الذي ضربه المسلمون الأوائل في التعايش مع الآخر نبراسٌ للمسلمين في تعاملهم مع الأمم المختلفة التي يعيشون فيها، وهو دافع لهم كذلك إلى أن ينخرطوا في مجتمعاتهم الجديدة ويندمجوا مع تلك الأمم، غير مفرِّطين في ثوابت الدين وأصوله، تلك الثوابت التي تدعو إلى التعامل مع الآخر والتعايش السلمي معه، في إطار من المشاركة والعطاء، والعرفان والوفاء لذلك الآخر الذي استقبلهم في بلاده.

نموذج الاندماج والتواصل في الحبشة

كانت علاقة الرسول ﷺ والمسلمين مع النجاشيّ وأهل الحبشة علاقة ودٍّ واحترام ولين في الكلام، فالمسلمون احترموا أهل الحبشة ولم يُنكروا عليهم دينهم، ولم يتدخّلوا في شؤونهم الداخلية إلا في مساعدتهم في إطار من التعاون والمشاركة والوفاء لجميل إيوائهم وحُسن وفادتهم.

وفي ظلِّ هذه العلاقة الطيّبة كان النجاشيّ يبعث للرسول ﷺ العديد من الهدايا تعبيراً عن تقديره للرسول:

فعن جابر بن عبد الله: «أَهْدَى النجاشيّ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَارُورَةً مِنْ غَالِيَةٍ»[1].

وعن ابن عباس قال: «أَهْدَى النجاشيّ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بَغْلَةً، وَكَانَ يَرْكَبُهَا،

(١) سنن البيهقي: الحديث ١٢٣١؛ تحفة الأحوذي: ج ١ ص ١٦٥ حاشية الحديث رقم ١٥٧٦.

وَبَعَثَ إِلَيْهِ بِقَدَحٍ، فَكَانَ يَشْرَبُ مِنْهُ»[1].

وعن عائشة قالت: «أَهْدَى النجاشيّ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ حِلْيَةً، فِيهَا خَاتَمٌ مِنْ ذَهَبٍ، فِيهِ فَصٌّ حَبَشِيٌّ، فَأَخَذَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِعُودٍ وَإِنَّهُ لَمُعْرِضٌ عَنْهُ، أَوْ بِبَعْضِ أَصَابِعِهِ وَإِنَّهُ لَمُعْرِضٌ عَنْهُ، ثُمَّ دَعَا بِابْنَةِ ابْنَتِهِ أُمَامَةَ بِنْتِ أَبِي الْعَاصِ، فَقَالَ: تَحَلَّي بِهَذَا يَا بُنَيَّةُ»[2].

ولا شك أنّ الصحابة الذين هاجروا إلى الحبشة كانوا تحت رعاية النجاشيّ بنفسه، وتحت نظره ليرى ما يفعلونه في حياتهم من عبادات ومعاملات، ولعلّ هذا ما أكّد صدق كلامهم عنده في أوّل لقاء وقرّبه أكثر لمعرفة هذا الدين، ثمّ تبادل مع الرسول ﷺ الرسائل والمكاتبات، وقد حمل بعضها دعوة رسول الله النجاشيّ إلى الإسلام، وردَّ عليه النجاشيّ بحبٍّ وتوقير وإقرار بأنّه رسول الله حقّاً، وأنّه صادق مصدَّق، وختم ذلك بمبايعته له.

وهذا ما أكّده حرص الرسول ﷺ على الصلاة عليه حين مات، حيث قال ﷺ: «مَاتَ الْيَوْمَ رَجُلٌ صَالِحٌ، فَقُومُوا فَصَلُّوا عَلَى أَخِيكُمْ أَصْحَمَةَ»[3].

وروى الصدوق بإسناده إلى أبي محمّد الحسن بن عليّ العسكري، عن آبائه، عن عليّ عليه السلام قال: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا أَتَاهُ جَبْرَئِيلُ عليه السلام بِنَعْيِ النجاشيّ بَكَى بُكَاءَ حَزِينٍ عَلَيْهِ، وَقَالَ: إِنَّ أَخَاكُمْ أَصْحَمَةَ ـ وَهُوَ اسْمُ النجاشيّ ـ مَاتَ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْجَبَّانَةِ، وَصَلَّى عَلَيْهِ، وَكَبَّرَ سَبْعاً، فَخَفَضَ اللهُ لَهُ كُلَّ مُرْتَفِعٍ حَتَّى رَأَى جِنَازَتَهُ وَهُوَ بِالْحَبَشَةِ»[4].

كذلك نرى من خلال نموذج تعايش المسلمين في الحبشة كيف فرح المسلمون

---

(١) أخلاق النبيّ وآدابه: ج ٢ ص ٤٦٧؛ الأنوار في شمائل النبيّ المختار: ج ١ ص ٣٢٠ ح ٩١٤.
(٢) سنن أبي داود: ج ٤ ص ٩٢؛ مصنف ابن أبي شيبة: ج ٦ ص ٦٥.
(٣) صحيح البخاري: ج ٥ ص ٥١ ح ٣٦٤٤.
(٤) الخصال: ج ٢ ص ١١، وعيون أخبار الرضا: ج ٢ ص ٢٥٢.

بنصر النجاشيّ على عدوِّه الذي نازعه في ملكه، وفي هذا تقول السيّدة أم سَلَمَة: «فَدَعَوْنَا اللهَ تَعَالَى للنَّجَاشِيِّ بالظُّهُورِ عَلَى عَدُوِّهِ، وَالتَّمْكِينِ لَهُ فِي بِلادِهِ.. فَوَاللهِ إنَّا لَعَلَى ذَلِكَ مُتَوَقِّعُونَ لِمَا هُوَ كَائِنٌ، إذْ طَلَعَ الزُّبَيْرُ وَهُوَ يَسْعَى، فَلَمَعَ بِثَوْبِهِ وَهُوَ يَقُولُ: أَلا أَبْشِرُوا، فَقَدْ ظَفِرَ النجاشيّ، وَأَهْلَكَ اللهُ عَدُوَّهُ، وَمَكَّنَ لَهُ فِي بِلادِهِ.. فَوَاللهِ مَا عَلِمْتَنَا فَرِحْنَا فَرْحَةً قَطُّ مِثْلَهَا»[1].

وردّاً للمعروف لمّا قدم وفد النجاشيّ على رسول الله ﷺ، كان ﷺ يخدمهم بنفسه فقال له أصحابه: نحن نكفيك. فقال: «إنّهم كانوا يكرّمون أصحابي وأحبّ أن أكافئهم»[2].

كما فرح النجاشيّ بنصر النبيّ ﷺ على مشركي مكة في غزوة بدر، فعن مَسْعَدَة بن صَدَقَة، عن أبي عبد الله (جعفر الصادق) عليه السلام قال: أَرْسَلَ النجاشيّ إِلَى جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِب وَأَصْحَابِهِ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ، وَهُوَ فِي بَيْتٍ لَهُ جَالِسٌ عَلَى التُّرَابِ وَعَلَيْهِ خُلْقَانُ الثِّيَابِ.. فَقَالَ جَعْفَرٌ عليه السلام: فَأَشْفَقْنَا مِنْهُ حِينَ رَأَيْنَاهُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ، فَلَمَّا رَأَى مَا بِنَا وَتَغَيُّرَ وُجُوهِنَا قَالَ: الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي نَصَرَ محمّداً، وَأَقَرَّ عَيْنَهُ، أَلا أُبَشِّرُكُمْ؟ فَقُلْتُ: بَلَى أَيُّهَا الْمَلِكُ. فَقَالَ: إِنَّهُ جَاءَنِي السَّاعَةَ مِنْ نَحْوِ أَرْضِكُمْ عَيْنٌ مِنْ عُيُونِي هُنَاكَ، فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ نَصَرَ نَبِيَّهُ محمّداً ﷺ، وَأَهْلَكَ عَدُوَّهُ، وَأُسِرَ فُلانٌ وَفُلانٌ وَفُلانٌ، الْتَقَوْا بِوَادٍ يُقَالُ لَهُ بَدْرٌ كَثِيرِ الأَرَاكِ، لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ حَيْثُ كُنْتُ أَرْعَى لِسَيِّدِي هُنَاكَ وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي ضَمْرَةَ، فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، فَمَا لِي أَرَاكَ جَالِساً عَلَى التُّرَابِ وَعَلَيْكَ هَذِهِ الْخُلْقَانُ؟! فَقَالَ لَهُ: يَا جَعْفَرُ، إِنَّا نَجِدُ فِيمَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى عِيسَى عليه السلام أَنَّ مِنْ حَقِّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يُحْدِثُوا لَهُ تَوَاضُعاً عِنْدَمَا يُحْدِثُ لَهُمْ مِنْ نِعْمَةٍ، فَلَمَّا أَحْدَثَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِي نِعْمَةً بِمحمّد ﷺ، أَحْدَثْتُ لِلهِ هَذَا التَّوَاضُعَ. فَلَمَّا بَلَغَ النبيّ ﷺ قَالَ لِأَصْحَابِهِ:

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام: ج ١ ص ٣٣٤.

(٢) المصباح المضيء، جمال الدين ابن حديدة الأنصاري: ج ٢ ص ٣٦.

«إِنَّ الصَّدَقَةَ تَزِيدُ صَاحِبَهَا كَثْرَةً، فَتَصَدَّقُوا يَرْحَمْكُمُ اللهُ، وَإِنَّ التَّوَاضُعَ يَزِيدُ صَاحِبَهُ رِفْعَةً فَتَوَاضَعُوا يَرْفَعْكُمُ اللهُ، وَإِنَّ الْعَفْوَ يَزِيدُ صَاحِبَهُ عِزّاً فَاعْفُوا يُعِزَّكُمُ اللهُ»(١).

وفي رواية الروض قال النجاشيّ: «إنّا نجد في الإنجيل أنّ الله سبحانه إذا أحدث بعبده نعمة وجب على العبد أن يحدث لله تواضعاً، وإنَّ الله قد أحدث إلينا وإليكم نعمة عظيمة، وهي أنّ النبيّ محمّداً ﷺ بلغني أنّه التقى هو وأعداؤه بوادٍ يقال له بدر، كثير الأراك، وأنّ الله تعالى قد هزم أعداءه فيه، ونصر دينه»(٢).

وفي إطار هذا التعايش السلمي بين المسلمين وأهل الحبشة يُذكر: أنّ جعفراً عليه السلام وُلِد له بأرض الحبشة ثلاثة أولاد: محمّد، وعون، وعبد الله. وكان النجاشيّ قد ولد له مولود يوم وُلد عبد الله، فأرسل إلى جعفر يسأله كيف أسميت ابنك؟ فقال: عبد الله. فسمّى النجاشيّ ابنه عبد الله، وأرضعته أسماء بنت عميس امرأة جعفر مع ابنها عبد الله، فكانا يتواصلان بتلك الأخوة(٣).

وكما نجد أنّ المهاجرين اليوم إلى دول أخرى يفضلون الإقامة الدائمة في تلك البلدان، ما داموا آمنين مطمئنّين على أنفسهم ودينهم، كذلك نجد أنَّ فئة من الصحابة حبّذت الإقامة في الحبشة حتى بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، حيث بقي منهم في الحبشة نحو خمسين أو ستين تحت حماية النجاشيّ.

آية كريمة ووقفة تأمُّل

ولا ينبغي أن يقف الحديث عن نموذج الحبشة دون أن نعرّج على آيةٍ قرآنيّة مهمّة لها أساس في فهم الدور النبويّ العظيم، وهي قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ

---

(١) الكافي: ج ٢ ص ١٢١؛ أمالي الطوسي: ص ٩.

(٢) الروض الأنف: ج ٢ ص ١١٦؛ بحار الأنوار: ج ١٨ ص ٤٢١.

(٣) الروض الأنف: ج ٤ ص ١٠٣؛ جعفر بن أبي طالب أول سفير في الإسلام، محمود شيث الخطاب، مجلة البحوث الإسلامية عدد ٢٧ إصدار ربيع الأول سنة ١٤١٠هـ؛ تفسير الصافي، الفيض الكاشاني: ج ٢ ص ٧٨.

عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [1]..

قال الكواشي: «نزلت رخصة في صلة الذين لم يُعادوا المؤمنين ولم يُقاتلوهم». ثم قال: «وفي هذه الآية دلالة على جواز صلة الكفار، الذين لم ينصبوا لحرب المسلمين، وبِرِّهم، وإن انقطعت الموالاة بينهم.. قال القشيري: مَن كان فيهم حُسن خُلق، أو للمسلمين منهم رِفْق، أُمروا بالملاينة معهم»[2].

ومنه ما جاء في صحيح البخاري عن عائشة: أَنَّ يَهُوداً أَتَوْا النبيّ ﷺ، فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: عَلَيْكُمْ السَّامُ وَلَعَنَةُ اللهِ وَغَضَبُ اللهِ عَلَيْكُمْ. قَالَ: «مَهْلاً يَا عَائِشَةُ عَلَيْك بِالرِّفْقِ وَإِيَّاكِ وَالْعُنْفَ وَالْفُحْشَ»[3].

هذا النموذج الذي وضعه الإسلام للتعايش السلمي مع الآخر، قد طبَّقه المسلمون الأوائل حين هاجروا إلى الحبشة هرباً من اضطهاد مشركي مكة، فاندمجوا في المجتمع، وتعاملوا مع الأحباش، وتاجروا معهم، وأخذوا وأعطوا، بل لقد دعوا الله تعالى للنجاشي بالظهور على عدوِّه والتمكين له في بلاده، وفرحوا بنصرته، وتَذْكر بعض الروايات أنَّ المسلمين قد تعاونوا مع النجاشيّ في

(١) الممتحنة: ٨ ـ ٩. ونحتاج ـ بشكل موجز ـ أن نقف حول مفهوم هذه الآية الكريمة: ـ ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ أي الذين لم يشنّوا الحرب عليكم لأنكم مسلمون وهم غير مسلمين، بل تقبّلوا هذا الخلاف الديني بينكم وبينهم بشكل موضوعي سلمي. ـ ﴿وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ أيضاً لأنهم لم يخطّطوا من خلال ما يملكون من قوة لأن يخرجوكم من دياركم ويشرّدوكم من أرضكم، بل كانوا مسالمين يتعايشون معكم في وطن واحد أو في وطنين متجاورين، كما يتعايش المسالم مع المسالم. ـ ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ والبرّ هو الإحسان، وكلمة الإحسان هي من الكلمات الواسعة التي تمتدّ في كلّ العلاقات الإنسانية التي ترتكز على التعاون والتواصل والعطاء. ـ ﴿وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ القسط هو الحقّ الذي للإنسان، فقيام الناس بالقسط هو أن يُعطى لكلّ إنسان حقّه ونصيبه، لذلك عليكم أن تتعاملوا مع هؤلاء على أساس العدل، فإذا كان لهم حقّ عليكم فعليكم أن لا تمنعوهم حقهم.. ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾، أي العادلين.

(٢) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ابن عجيبة الحسني: ج ٦ ص ٣٠٣.

(٣) صحيح البخاري: ج ٥ ص ٢٢٤٢؛ البحر المديد: ج ٦ ص ٣٠٣.

حربه مع عدوّه، ولعلّهم رأوا في ذلك نصرة للحقّ ورداً للمعروف.

فقد رُوي أنّ جعفرَ بنَ أبي طالب عليه السلام «قاتل بالحبشة مع العدوّ الذي كان قصد النجاشيّ، وإنّما فعل ذلك؛ لأنّه لما كان مع المسلمين يومئذ آمناً عند النجاشيّ فكان يخاف على نفسه وعلى المسلمين من غيره، فعرفنا أنّه لا بأس بذلك عند الخوف»(١).

وروى البلاذري «أنَّ الزبير بن العوام قاتل بين يدي النجاشيّ عدوّاً له، فأبلى، فوهب له العنزة»(٢).

فأن يكون المسلمون أقلّيّة تعيش في مُنَاخ من الأمن والعدل والحرية في ظلّ دولة غير إسلامية، فهذا النموذج أو هذه الحالة قد تبدو في القرن الثاني أو الثالث الهجري مجرّد فرض مستبعد قيامه، وعليه فإنّ الفقهاء لم يستجيزوا التعامل معه أو تصوّره؛ كي لا يكون تأصيل أحكام لمثل هذا النموذج فيه ذريعة للضعف، ولكنّ الزمان قد استدار والواقع قد تغيّر وربّما تحتاج الأمّة إلى أن تعود لهذا النموذج مرّة أخرى، فيتمسّكوا بالسيرة العطرة لرسول الله صلى الله عليه وآله، ويطبّقوها في واقعهم الذي يعيشونه؛ ليهتدوا به في تعاملهم مع الأمم التي يعيشون فيها، غير مفرِّطين في ثوابت الدين وأصوله.

يقول السيّد محمّد حسين فضل الله: «وقد نستطيع استيحاء هاتين الآيتين في الانفتاح على غير المسلمين بطريقةٍ إيجابيةٍ على مستوى العلاقات الدولية، أو على صعيد العلاقات الحركيّة السياسية، أو في دائرة الأوضاع الاقتصادية، فإنّ الله لا ينهى عن البرِّ بهم، والعدل معهم، وليست المسألة في إيحاءاتها الفكرية، مجرّد حالةٍ إنسانيّةٍ خيريةٍ، بل هي إلى جانب ذلك حركة عمليّة في هذا الاتجاه،

(١) المبسوط للسرخسي: ج ١٠ ص ٩٨.
(٢) أنساب الأشراف: ج ١ ص ٨٦.

لأنَّ أجواء الآيتين، مع ملاحظة الآيات السابقة، تؤكّد في مسألة المقاطعة ورفض الموالاة على الحالة العدوانية لا على الخلاف الديني، ما يفسح المجال لعلاقاتٍ إنسانيةٍ سياسيةٍ واقتصاديةٍ إيجابيةٍ، فإنَّ كلمة (البِرّ) قد تتّسع للكثير من النشاطات العامة، كما أنَّ كلمة (العدل) قد تتحدَّث عن التوازن في المواقف والعلاقات.

وقد أثار الفقهاء أحاديث متنوِّعة في ما يتّصل بالآية الأولى، حيث تحدّثوا عن أنَّ الصدقة تجوز من المسلم على الذمّي من أهل الكتاب، بل قال أبو حنيفة إنّه تجوز عليه زكاة الفطرة والكفارات، واتفقوا على جواز الوصية له بالمال، والوقف عليه، لأنَّ الله تعالى لم يَنْهَنا عن البرِّ به، وهذه الأمور هي من بعض مفردات البرّ. وقد نستطيع أن نضيف إلى ذلك الكافر المسالم، حتى لو لم يكن من أهل الكتاب، لا سيّما إذا لاحظنا أنَّ من الممكن أن تكون الآية شاملةً، إنْ لم تكن مختصَّةً بحسب مورد النزول، لأهل مكة المشركين الذين لم يشاركوا الطغاة في القتال أو في المساعدة على إخراج المسلمين، ولا بدّ من التأمّل في ذلك.

وإذا كنّا قد تحدّثنا عن مسألة الانفتاح على غير المسلمين المسالمين في العلاقات الدولية أو الحركية السياسية، فإنّنا قد نستطيع الإشارة إلى دراسة العلاقات مع الدول الكبرى أو الصغرى التي تتحرّك ضدّ المسلمين بطريقةٍ عدوانيةٍ ضدّ مصالحهم السياسية أو الاقتصادية أو الأمنية، لأنَّ القضية ليست قضية القتال في الدين والمساعدة على التَّشريد، كخصوصيَّتين ذاتيَّتين، بل كنموذجين للعداوة التي تمثِّل المبدأ الذي يدور مداره الموقف الودّي أو الموقف المضاد»[1].

ويؤكّد السيّد علي السيستاني ـ في هذا الصدد ـ على جملة من الفتاوى المهمّة؛ تمثّل سماحة الإسلام وعنايته بالتعايش:

(١) تفسير من وحي القرآن، السيد محمّد حسين فضل الله: ج ٢٢ ص ١٥٧ـ١٥٩.

الأولى: يحقّ للمسلم أن يتّخذ معارف وأصدقاء من غير المسلمين، يخلص لهم ويخلصون له، ويستعين بهم ويستعينون به على قضاء حوائج هذه الدنيا.

الثانية: يجوز تهنئة الكتابيّين من يهود ومسيحيّين وغيرهم، وكذلك غير الكتابيّين من الكفار، بالمناسبات التي يحتفلون بها أمثال: عيد رأس السنة الميلادية، وعيد ميلاد السيد المسيح ﵇، وعيد الفصح.

الثالثة: يحرم على المسلم خيانة مَنْ يأتمنه على مال أو عمل، حتى لو كان كافراً، ويجب على المسلم المحافظة على الأمانة وأدائها كاملة.

الرابعة: لا تجوز السرقة من أموال غير المسلمين الخاصّة والعامّة ولا يجوز إتلافها، حتى وإن كانت تلك السرقة وذلك الإتلاف لا يُسيء إلى سمعة الإسلام والمسلمين فَرَضاً، ولكنّها عُدّت غدراً ونقضاً للأمان الضمنيّ المُعطى لهم حين طلب رخصة الدخولِ إلى بلادهم، أو طلب رخصة الإقامة فيها، وذلك لحرمة الغدر، ونقض الأمان، بالنسبة إلى كلِّ أحد، مهما كان دينه وجنسه ومعتقده.

الخامسة: يجوز التصدّق على الكفار الفقراء ـ كتابيين كانوا أو غير كتابيّين ـ بشرط أن لا ينصبوا العداوة للحقّ وأهله، ويثاب المتصدِّق على فعله ذلك.

من خلال ذلك نفهم أنّ علينا أن نحترم كلَّ حقوق هؤلاء وأملاكهم، ولا يجوز للإنسان أن يعتديَ على مال شخص غير مسلم بحجّة أنّ هذا الإنسان كافر وأنّ أموال الكفّار مباحة لنا، كما في بعض الفتاوى التي يستخدمها مَن يذهبون إلى الغرب أو إلى الشرق بحجّة أنّ هؤلاء كفّار، فما داموا مسالمين لا يجوز لنا أن نعتديَ على أموالهم أو نعتديَ على أعراضهم.

وانطلاقاً من هذه المفاهيم، ومن هذه القيم وجدْنا المسلمين يعيشون الرحمة في نفوسهم تجاه المختلِف معهم دينياً وسياسياً، وقد تجلّى ذلك في العصر الإسلامي الأوّل وحتّى في الحقبات التي أعقبته، بما فيها تلك التي لم يكن الحكم إسلامياً بشكلٍ صريح وحاسم.

ولذلك رأينا اليهود يتعايشون مع المسلمين في شكلٍ طبيعي من دون أن يعترضهم أحدٌ إلا في الحالات التي كانوا يعتدون فيها على المسلمين، وفي حالات أخرى رأينا نوعاً من التعاون معهم كما في تجربة الأندلس، كما شهد العالم شفافية المسلمين في التعاطي مع المسيحيين؛ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [المائدة: ٨٢].. فكانوا علماء متزهِّدين، وعُبّاداً في الصوامع متعبِّدين. والعلم مع الزهد والعبادة ممّا يلطف القلب ويرقّقه، ويزيل عنه ما فيه من الجفاء والغلظة، فلذلك لا يوجد فيهم غلظة اليهود، وشدّة المشركين.

ويمكن لكلِّ باحث أو مطّلع موضوعيّ وعلميّ أن يجزم بهذه الحقيقة، وأنّ المنظومة التشريعية والأخلاقية والقيمية الإسلامية لم تنطلق على أساس حماية وتحصين الواقع الإسلامي فحسب، بل لحماية الآخرين أيضاً، ولتأمين أفضل العلاقات معهم، ولاحترام خصوصيّاتهم وأمنهم وواقعهم الخاص.

إنّ الإسلام يتطلّع إلى الأفق العالمي الواسع، وإلى الأمن والسلام العالميّين كهدفٍ من أهدافه الكبرى، وإلى الحوار الحضاريّ والعملي مع الشعوب كافة، ولذلك لم يرفض أيَّ صيغة حضارية من صيغ اندماج المسلمين مع غيرهم، شرط الاحتفاظ بهويّتهم وخصوصيّتهم، وفي مقابل احترام المسلمين لأمن الآخرين وحركتهم وخصوصيّتهم.

وهذا ما تجلّى بصورة رائدة في وثيقة المدينة المنوّرة.

❀ ❀ ❀

وثيقة المدينة المنوّرة: الأسس والمبادئ

كانت بداية التطبيق العملي لمبدأ التسامح منذ قدوم الرسول ﷺ مهاجراً إلى المدينة المنوّرة، فعمل من أوّل وهلة على تأسيس الدولة المدنية؛ حيث أبرم ﷺ في السنة الأولى من الهجرة النبوية وثيقةً أو دستوراً بين أهل المدينة بطوائفها كلِّها، وهي الوثيقة السياسيّة الأولى، واشتملت على أربعة بنود رئيسة، وثمان وأربعين (٤٨) فقرة في العلاقة والمواطنة والتعايش.

والبنود هي:

البند الأول: الأمن الجماعي والتعايش السلمي بين جميع مواطني دولة المدينة.

البند الثاني: ضمان حرية الاعتقاد والتعبّد.

البند الثالث: ضمان المساواة التامّة لمواطني دولة المدينة في المشاركة الفاعلة في مجالات الحياة المختلفة، تحقيقاً لمبدأ أصيل تقوم عليه الدول الحديثة في عالم اليوم، وهو مبدأ المواطنة الكاملة. فضَمِن دستور المدينة هذا الحقّ لكلّ ساكنيها، في وقتٍ لم يكن العالم يعي معنى كلمة الوطن بالتزاماته وواجباته.

البند الرابع: ترسيخ إقرار مبدأ المسؤولية الفردية، وأصل هذه المسؤولية الإعلان عن النظام، وأخذ الموافقة عليه.

وعلى أثر هذه الوثيقة زادت رقعة معاملة المسلمين لغير المسلمين في عهد

النبيّ ﷺ على أساس مبدأ التسامح الذي فاضت به نصوص القرآن الكريم، وبيّنته السيرة النبوية ـ قولاً وفعلاً ـ بعد ذلك.

وتُعدّ هذه المعاهدة الوثيقة الأولى التي احتوت على بنود محقّقة للمواطنة، وحقوق المواطنين وواجباتهم، من النواحي السياسيّة والعسكريّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة.

وأمّا نصّ الوثيقة فجاءت كالتالي:

«هذا كتاب من محمّد النبيّ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومَنْ تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم.

البند الأول

١ ـ إنّهم أمّة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم، يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٢ ـ وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، كلّ طائفة تفدي بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٣ ـ وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكلّ طائفة منهم تفدي عمّا فيها بالمعروف، والقسط بين المؤمنين.

٤ ـ وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكلّ طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٥ ـ وبنو جُشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكلّ طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف، والقسط بين المؤمنين.

٦ ـ وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكلّ طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف، والقسط بين المؤمنين.

٧ ـ وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكلّ طائفة تفدي عانيها بالمعروف، والقسط بين المؤمنين.

٨ ـ وبنو النُّبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكلّ طائفة تفدي عانيها بالمعروف، والقسط بين المؤمنين.

٩ ـ وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكلّ طائفة تفدي عانيها بالمعروف، والقسط بين المؤمنين.

١٠ ـ وإنّ المؤمنين لا يتركون مُغرماً بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل.

١١ ـ وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه، وإنّ المؤمنين المتَّقين على مَن بغى منهم، أو ابتغى دسيعة ظلم، أو إثم، أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين وإن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم.

١٢ ـ ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن، وإنّ ذمّة الله واحدة، يجير عليه أدناهم.

١٣ ـ وإنّ المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس.

١٤ ـ وإنّه مَن تبعنا من يهود فإنّ له النصر والأسوة، غير مظلومين، ولا متناصرين عليه.

١٥ ـ وإنّ سِلْمَ المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله، إلاّ على سواء وعدل بينهم.

١٦ ـ وإنّ كلّ غازية غزت معنا يُعقب بعضها بعضاً وإنّ المؤمنين يُنبئ

بعضهم على بعض، بما نال دماءهم في سبيل الله.

١٧ ـ وإنّ المؤمنين المتَّقين على أحسن هدى وأقومه.

١٨ ـ وأنّه لا يجير مشرك لقريش، ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمن.

١٩ ـ وإنّه من اعتبط مؤمناً قتلاً عن بيّنة فإنّه قَوْد به، إلاّ أنّ يرضى وليّ المقتول، وإنّ المؤمنين عليه كافة، ولا يحلّ لهم إلاّ قيام عليه.

٢٠ ـ وإنّه لا يحلّ لمؤمن أقرّ بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر، أن ينصر مُحدِثاً ولا يُؤويه. وأنّه من نصره أو آواه، فإنّ عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل.

٢١ ـ وإنكم مهما اختلفتم فيه في شيء، فإنّ مردّه إلى الله عزّ وجلّ وإلى محمّد ﷺ.

البند الثاني

٢٢ ـ وإنّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

٢٣ ـ وإنّ يهود بني عوف أمّة مع المؤمنين. لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلاّ من ظلم وأثم، فإنّه لا يُرتِغ إلاّ نفسه، وأهل بيته.

٢٤ ـ وإنّ ليهود بني النجار مثلما ليهود بني عوف.

٢٥ ـ وإنّ ليهود بني الحارث مثلما ليهود بني عوف.

٢٦ ـ وإنّ ليهود بني الأوس مثلما ليهود بني عوف.

٢٧ ـ وإنّ ليهود بني جُشم مثلما ليهود بني عوف.

٢٨ ـ وإنّ ليهود بني ثعلبة مثلما ليهود بني عوف، إلا من ظلم وأثم، فإنّه لا يُرتِغ إلا نفسه، وأهل بيته، وإِنّ جفنة بطن مثل ثعلبة كأنفسهم.

٢٩ ـ وإنّ لبني الشُّطيبة مثلما ليهود بني عوف.

٣٠ ـ وإنّ البرّ دون الإثم.

٣١ ـ وإنّ موالي ثعلبة كأنفسهم.

٣٢ ـ وإنّ بطانة يهود كأنفسهم.

٣٣ ـ وإنّه لا يخرج منهم أحد إلاّ بإذن محمّد ﷺ.

٣٤ ـ وإنّه لا ينحجر على ثأر جُرح، وإنّه من فتك فبنفسه فتك، وأهل بيته، إلاّ من ظلم، وإنّ الله على أبر هذا.

٣٥ ـ وإنّ على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإنّ بينهم النصر على مَنْ حارب أهل هذه الصحيفة.

٣٦ ـ وإنَّ بينهم النُّصح والنصيحة، والبرّ دون الإثم.

٣٧ ـ وإنّه لم يأثم امرؤ بحليفه وإنّ النصر للمظلوم.

٣٨ ـ وإنّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

٣٩ ـ وإنَّ يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.

٤٠ ـ وإنّ الجار كالنّفس غير مضار ولا آثم.

٤١ ـ وإنّه لا تجارُ حرمة إلاّ بإذن أهلها.

٤٢ ـ وإنّه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإنّ مردّه إلى الله عزّ وجلّ وإلى محمّد رسول الله ﷺ، وإنّ الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره.

٤٣ ـ وإنّه لا تجارُ قريش ولا من نَصَرَها.

البند الثالث

٤٤ ـ وإنّ بينهم (أي بين اليهود والمسلمين) النصر على من دهم يثرب.

٤٥ ـ وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه، ويلبسونه، فإنّهم يصالحونه ويلبسونه، وإنّهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنّه لهم على المؤمنين، إلاّ مَنْ حارب في الدين، على كلِّ أناس حصّتهم من جانبهم الذي قبلهم.

٤٦ ـ وإنّ يهود الأوس، مواليهم أنفسهم، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البرّ المحض من أهل الصحيفة.

البند الرابع

٤٧ ـ وأنّه لا يحول هذا الكتاب دون ظلم آثم.

٤٨ ـ وإنّه مَن خرج أمن، ومَن قعد أمن بالمدينة، إلاّ من ظلم أو أثم، وإنّ الله جار لمن برّ واتقى، ومحمّد رسول الله ﷺ».

ونلاحظ في هذه الصحيفة المهمة، أنّها تناولت أربعة اتجاهات متعلّقة بالمجتمع المدني آنذاك، وهي:

(أ) بنود متعلّقة بالمسلمين:

- المؤمنون من قريش ويثرب، ومَن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أمّة واحدة من دون الناس.

- كلُّ فريق من المؤمنين (المهاجرين، بني ساعدة، من الأوس..) على

ربعتهم[1] يتعاقلون بينهم وهم يفدّون عانيهم[2] بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وإنّ المؤمنين لا يتركون مفرحاً[3] بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل.

- المؤمنون المتّقون على مَن بغى منهم، وإنّ أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم.

- ذمّة الله واحدة، يجير على المسلمين أدناهم، والمؤمنون بعضهم موالي بعض دون الناس.

- مَن تبع المؤمنين من اليهود، فإنّ له النصرة والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم.

(ب) بنود متعلِّقة بالمشركين:

- لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً، ولا يحول دونه على المؤمنين.

- لقريش وحلفائها حقّ الصلح إذا طلبوه، إلا مَنْ حارب منهم الإسلام.

- لا تُجّار قريش ولا مَنْ نصرها.

(ج) بنود متعلِّقة باليهود

- ينفق اليهود مع المؤمنين ما داموا محاربين.

- يهود بني عوف أمّة مع المؤمنين، لليهود دينهم، مواليهم وأنفسهم.. ولبقيّة اليهود من بني النجار، يهود بني الحارث... ما ليهود بني عوف. وإنّ بطانة يهود كأنفسهم.

---

(١) الربعة: الحالة التي جاء الإسلام وهم عليها.

(٢) العاني: الأسير.

(٣) المفرح: الكثير العيال والمثقل بالدَّيْن.

- لا يخرج من يهود أحدٌ إلا بإذن محمّد ﷺ.
- على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإنّ بينهم النصر على مَن حارب أهل هذه الصحيفة، وإنّ بينهم النُّصح... والنَّصر للمظلوم.

(د) بنود متعلّقة بالقواعد العامّة

- يثرب حرام جوفها لأهل الصحيفة، وإنّ الجار كالنَّفس، غير مُضَار، ولا آثم، وإنه لا تُجار حرمة إلا بإذن أهلها.
- ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإنّ مردَّه إلى الله عزّ وجلّ وإلى محمّد رسول ﷺ.
- وإنّ بينهم (أهل الصحيفة) النصر على من دهم يثرب.
- من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم أو أثم، وإنّ الله جار لمن برّ واتقى، ومحمّد رسول الله ﷺ.

وتنبع القيم التخطيطية في هذه الوثيقة من أنّها تتعلّق بمختلف الأحكام التنظيمية للمجتمع الإسلامي؛ وأنّها دستور «وهذه الكلمة هي أقرب مصطلحات العصر الحديث لهذه الوثيقة»[1].

وقد عالجت هذه الوثيقة، كلَّ ما يمكن أن يعالجه أيّ دستور حديث يُعنى بوضع الخطط العامة، والكلّيات المهمّة لنظام المجتمع والدولة، حيث عالجت هذه الوثيقة العلاقات الداخلية والخارجية، الداخلية تعني العلاقة بين أفراد المجتمع والدولة مع بعضهم بعضاً، وكذلك علاقتهم مع الآخرين.

ونريد أن نتبيَّن تلك الأسس من خلال تحليلنا لأهمّ ما ورد في بنود الوثيقة النبويّة:

(١) فقه السيرة النبوية، محمّد سعيد رمضان البوطي: ص ٢٢٥.

١. قوله ﷺ: «أنّهم أمّة واحدة من دون الناس» يقرّ فيه ﷺ مبدأ الوحدة الوطنية بين ساكني الوطن الواحد، فهم رعايا الدولة أو شعب الدولة في ذلك الوقت.

٢. قوله ﷺ: «وأنّ مَن تبعنا من يهود، فإنّ له النصرة والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم» ينصّ فيه ﷺ على ضرورة مناصرة المواطنين غير المسلمين، والوقوف إلى جوارهم؛ تأكيداً لحقّهم في ذلك على المسلمين ضدّ أيّ اعتداء عليهم.

٣. قوله ﷺ: «وأنّ يهود بني عوف أمّة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم: مواليهم وأنفسهم، إلا مَن ظلم وأثم، فإنّه لا يوتغ (يهلك) إلا نفسه وأهل بيته» إعلان صريح للوحدة الوطنية بين طوائف المجتمع، قانونها العدل، دون الظلم والاعتداء، وعلى الظالم أن يتحمّل عاقبة ظلمه.

٤. قوله ﷺ: «وأنّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين» يقرّر ﷺ من خلاله مبدأ المساواة بين المواطنين من مسلمين وغيرهم في مؤازرة الدولة اقتصادياً حال محاربتهم للأعداء، كما يقرّ فيه ضرورة الموالاة والنصرة بين الطرفين ضدّ العدو.

٥. قوله ﷺ: «وأنّ على اليهود نفقتهم، وأنّ على المسلمين نفقتهم» يقرّ فيه مبدأ التكافل الاقتصادي عند توزيع الأعباء الاقتصادية على فئات المجتمع بكلّ أطيافه.

٦. قوله ﷺ: «وأنّ ليهود بني النجار... وأنّ موالي ثعلبة كأنفسهم» يقرّ فيه مبدأ المساواة في الحقوق والواجبات بين المسلمين ومختلف طوائف الدولة في كنف الدولة الإسلامية.

٧. قوله ﷺ: «وأنّ بينهم النصر على مَن حارب أهل هذه الصحيفة، وأنّ

بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم» يحدِّد فيه أولويات المناصرة بين أهل هذه الصحيفة وبين أعدائهم الذين يحاربونهم، وهذا مفهوم عسكري دفاعي، مع توضيح ضرورة التعاون في إبداء الرأي والنصيحة والتشاور، وهذا مفهوم اجتماعي أصيل للمواطنة.

٨. قوله ﷺ: «وأنّه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمن» يُمنع أيُّ تعاون بين طوائف المجتمع وأعدائه، سواء في حماية النفوس أم الحفاظ على الأعراض والأموال.

٩. قوله ﷺ: «وأنّه لم يأثم امرؤ بحليفه» يوضح فيه بيان مبدأ المسؤولية الشخصية وتقريره للفرد والجماعة على حدٍّ سواء، فكلّ إنسان مسؤول عمّا اقترف، وهذا مبدأ من مبادئ الإسلام السمحة، أنّه لا يعاقب الجماعة أو يؤاخذها بسلوك فرد، انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿١٦٤﴾﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وقوله سبحانه: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ [الطور: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المدثر: ٣٨]، وهذا غاية العدل والإنصاف.

١٠. قوله ﷺ: «وأنّ يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة» أبلغ دليل من النبيّ ﷺ على تحديد نطاق مفهوم المواطنة الجغرافي وانتماء المواطن لوطنه.

١١. قوله ﷺ: «وأنّه لا تجار قريش ولا مَن نصرها» يقرّر فيه قطع أيّ تعاون عسكري مع أعداء الوطن ومعاونيه في الظلم.

١٢. قوله ﷺ: «وأنّ بينهم النصر على مَن دهم يثرب، وأنّه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم» ينصّ فيه النبيّ ﷺ على مبدأ أصيل من مبادئ المواطنة؛ وهو وجوب الدفاع عن الوطن، كما ينصّ على أنّ النصر يكون دائماً في حال الحقّ والعدل، لا في حال الظلم والإثم، فلا يعطي حقّ المواطنة للمواطن حقّ

البراءة إذا ظلم أو أثم، لأنّ الدين الإسلامي يناصر الحقّ ويقف بجواره، وينهي عن الباطل ويواجهه.

هذا بعض ما قرّرته الوثيقة وبنودها من حقوق المواطنة منذ عهد النبيّ ﷺ؛ إذ نصَّت على أنّ جميع المواطنين (مسلمين وغير مسلمين) يُعاملون على أساس واضح من المساواة، فليس هناك مواطنون من الدرجة الأولى، وآخرون من الدرجة الثانية أو الثالثة، فاعتبار العقيدة لا وجود له، والجميع أمام الشريعة وأحكام الحقوق والواجبات سواسية لا فرق بينهم.

ومن ثمّ كانت هذه الوثيقة مَثَلاً أعلى للمواطنة أقرَّت بحقوق المواطنين في الوطن الواحد، وبيَّنت أنّه لا فرق بينهم في تحمُّل المسؤوليّات، وأنّه لا حقَّ لأحد أن يمنح شيئاً من التميز على حساب الآخر، أو أن يُفرَّق بينه وبين غيره على أساس عقديّ أو عنصريّ؛ فالإسلام يقرّر أنّ معيار التميز والتكريم هو العمل الصالح وخدمة المجتمع والحفاظ على أمنه وسلامته.

لقد خلصت الوثيقة إلى مبادئ دستورية عديدة مثل[1]:

* تشكيل الأمّة من حيث العقيدة والدين اشتمل على كلِّ المسلمين حيثما كانوا.
* تشكيل الأمّة أي ـ الجماعة ـ من حيث المواطنة اشتمل على غير المسلمين في الدولة.
* المساواة في المعاملات العامة.
* منع إيواء المجرمين.
* منع خروج اليهود من إذن محمّد ﷺ.

(١) صفوة السيرة النبوية في سيرة خير البرية: ص ٢٠٨ـ٢٠٩.

* منع الظلم والعدوان في المال والعرض وغيرهما.
* منع الصلح المنفرد مع العدوّ.
* منع إجارة قريش (أي منع إجارة العدو).
* القَوَد من القاتل (أي حرمة الحياة).
* الإسهام في نفقة الدفاع عن الدولة والوطن.
* فداء الأسرى.
* وفاء الدين عن الغارمين.
* حقّ الحرية في العقيدة والدين.
* حقوق الجار.
* حرمة المسلم.
* تحريم المدينة.
* عدم إعطاء حقوق الحرمة للآخرين في المدينة إلا بإذن أهلها.
* مرجع حسم الخلاف حول بنود هذه الوثيقة لله ورسوله.

وهناك مبادئ دستورية أخرى يمكن استنباطها من الوثيقة، وهذه المبادئ ينطوي كلٌّ واحد منها على أحكام شرعيّة، وما ورد بها من ألفاظ وتعابير قويّة يوضح أهمّية قبول آراء النبيّ ﷺ كزعيمٍ سياسيّ ومرجع لكلّ مَنْ في المدينة.

من خلال بنود هذا العهد النبويّ المبارك ضرب لنا الرسول ﷺ نموذجاً فريداً، منذ عصور الإسلام الأولى، في التعايش مع اختلاف وتنوّع المذاهب والطوائف الإسلامية وغير الإسلامية، على أرضه، إضافةً إلى تنوّع المدارس الفقهيّة والنحويّة والعقديّة وغيرها دون تنافر أو تناحر.

ولكن يُراد لهذا الإرث التاريخي الجميل أن يتهاوى خلال تناحر وتمزّق خطير يطال التنمية الاجتماعية والتعايش السلمي بين طوائفه. من خلال: احتلال غربي شجّع ـ بكلّ قوته ـ على تأجيج التناحر المذهبي، وفتاوى تكفيرية صعّدت من وتيرة ارتكاب جرائم القتل بين طوائف المسلمين.

وهنا نؤكّد على أنّ المشتركات الإسلامية هي التي تؤسّس هُويّة الأمّة وعلينا أن نكرّس هذا المفهوم، وما الاختلاف إلا أمر طبيعي وضروري أقرّته الأديان والمواثيق الدولية.

والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢﴾ [التغابن: ٢] فذكر الله في هذه السورة الكريمة الخلاف الديني ما بين مؤمن وكافر؛ ممّا قضت إرادة الله تعالى أن يضمّ الكون المؤمن وغير المؤمن، فضلاً عن الخلاف داخل الدائرة الإسلامية، أو داخل الأمّة الإسلامية.

ولذا فإنّ التوظيف السياسي والحزبي والقبلي هو الذي يشدِّد الخلافات، وكان الرسول الكريم ﷺ يعمل على تهدئة الخلافات قبل أن تنفجر وتتحوّل إلى «فوضى خلاّقة» كما يُصطلح عليه الآن.

إنّ قناعتنا الإسلاميّة لا تمنع أن أتعامل مع مَن يخالفني أيّاً كان؛ وإنّ الإمام عليّ عليه السلام لما سُئِل عن الخوارج: أَمُشْرِكُونَ هُمْ؟ قَالَ: «مِنَ الشِّرْكِ فَرُّوا». قِيلَ: أَمُنَافِقُونَ هُمْ؟ قَالَ: «إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَذْكُرُونَ اللهَ إِلاَّ قَلِيلاً». قِيلَ: فَمَا هُمْ؟ قَالَ: «إِخْوَانُنَا بَغَوْا عَلَيْنَا»[1].

إنّ حلَّ أزمة الخلاف التي تعيشها الأمّة تتلخّص في القبول بالتنوّع والمسارات المتعدّدة، ومراعاة المشترَك الإنساني، وإشاعة ثقافة الاختلاف، ووضع الخلاف

(١) سنن البيهقي: ج ٨ ص ح ١٦٤٩٠؛ مصنف ابن أبي شيبة: ج ٧ ص ٥٣٥ ح ٣٧٧٦٣؛ كنز العمال: ج ١١ ص ١٥٠ ح ٣١٧٦٣.

في حجمه الطبيعي؛ ومسألة القدرة على الإقناع، والمشاركة في خدمة المصالح العامة، والحياد، وعدم توظيف الخلاف.

نماذج من تطبيقات قيم المدينة (العدل والمساواة)

يمثّل العدل دعامة وطيدة، وَصِفَة أصيلة للشريعة الإسلامية، حيث أمرت بأن يكون الحكم بالعدل، ولو على المخالف، وقد استوعبنا ذلك من خلال تسليط الضوء على قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿٨﴾﴾ [المائدة: ٨]. بل يجب تحرّي العدل ولو كان ضدّ النفس، حيث يقول سبحانه: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء: ١٣٥]، في الآية الكريمة جملة من الأمور المهمّة:

١. إنّ العدل لا يُجتزَأ، فكما أنّه مطلوب في الحكم والسلطة، كذلك هو مطلوب ليكون مُناخاً يُعاش، ويتغلغل في الحياة اليومية لكلّ الناس، لا ينفصل عنها.

٢. إنّها تشدّد على هذا المفصل: ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾، ممّا يعني قبولك بالنَّقد والانتقاد، وأن لا أحد فوق المساءلة والمحاسبة.

٣. في هذه الآية العظيمة، يحذّر الله من المطبِّ الآخر الذي يقع فيه الإنسان، وهو مطبُّ الأهل والأقربين، ذلك لأنّ الله تعالى يعلم كم للجانب العاطفي والانفعالي من تأثير، وكيف يطغى ويعمي القلب.

إنّ هذا الطغيان له في مجتمعاتنا الكثير من الأمثلة والوقائع الخطيرة، ولعلّه سبب رئيس لعدم تحقُّق العدالة، حيث يدفع مَنْ هم في موقع المسؤوليّة إلى أن ينحدروا ويعتبروا من الظالمين. فليس لك كمسؤول أن تعتبر أنّ قريبك أحقّ بالوظيفة من غيره، فقط لأنّه قريبك. بل ليس من صلاحيّتك ـ كمسؤول ـ أن تأتيَ

بأقاربك إلى المؤسّسات والإدارات العامة، متجاوزاً كلَّ الأنظمة السائدة، من اختبارات عادلة أو من تقييم أو كفاءة. وليس لك أن تتمّ تغطية فلان وفلان، لأنّه مقرَّب من المدير أو المسؤول، حتى Bنَّ خطأه يُغتفر ويتمّ تجاوزه.

إنّ الله تعالى يحذّركم من قوله في كتابه: ﴿وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء: ١٣٥]، يعلم كم تلجؤون أيّها المسؤولون إلى التمييز والتفضيل، ولَيِّ عنق القانون والأنظمة والأحكام.

وفي يومنا هذا، يُتقن الكثيرون ـ للأسف ـ ليَّ عنق القوانين إلى حدِّ كسرها، وجعلها واجهةً من دون مضمون. لهذا على الجميع، ومَن هم في مواقع المسؤوليّة، أن يضعوا هذه الآية نصب أعينهم، وفي مؤسّساتهم، وأمام كلِّ مَن لديه صلاحيات، كي تذكرهم بالعدل. وللجميع نقول: كونوا تحت القانون لا فوقه، ولا تقبلوا أن تمرَّ أيّ حالة استثنائية.

إنَّ مَنْ يريد أن ينجح ويفلح ويظلّ سجلّه نظيفاً عند الله، أكان حاكماً أم إنساناً عادياً، وفي أيِّ موقع من مواقع الحياة، فمعيار النجاح هو القسط والعدل، وإلى هذا أشارت النصوص الحكمية عن الإمام عليّ عليه السلام:

«**العدلُ أساسٌ به قوامُ العالم**»(١).

و«**بالعدل تتضاعفُ البركات**»(٢).

و«**اعدلْ تحكم**»(٣).

و«**اعدلْ تملك**»(٤).

---

(١) غرر الخصائص الواضحة: ج ١ ص ١٣١؛ مطالب السؤول: ص ٦١.
(٢) عيون الحكم والمواعظ: ص ١٨٨؛ مستدرك الوسائل: ج ١١ ص ٣٢٠.
(٣) عيون الحكم والمواعظ: ص ٧٨؛ مستدرك الوسائل: ج ١١ ص ٣١٩.
(٤) عيون الحكم والمواعظ: ص ٨٣؛ مستدرك الوسائل: ج ١١ ص ٣١٩.

و«**ما عُمِّرت البلدان بمثل العدل**»[1]..

فعلينا أن نُدخل قيمة العدل إلى كلّ ساحاتنا، من دون تجزئة في النظرة، والكلمة، والتشجيع، والمكافأة، وإعطاء الفرص، والتقييم..

وفي ذلك يروي جابر بن عبد الله الأنصاري: **أَنَّ امْرَأَةً مِنْ بَنِي مَخْزُوم سَرَقَتْ، فَأُتِيَ بِهَا النبيّ ﷺ، فَعَاذَتْ بِأُمِّ سَلَمَة، فَقَالَ النبيّ ﷺ: «لَوْ كَانَتْ فَاطِمَةَ بِنْتَ محمّد لَقَطَعْتُ يَدَهَا»**[2] وهذا هو حسم العدل.

كما أكّد الإسلام أنّ المساواة سِمَةٌ من سماته، وأصلٌ من أصوله، فهو يقرِّر أنَّ الناس سواسية، وفي ظلِّه تتلاشى الفوارق، وتزول كلّ الاعتبارات عدا التقوى، فلا تفاضل بينهم في إنسانيّتهم. قال رسول الله ﷺ ـ في خطبة حجّة الوداع في مِنى: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، أَلا وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلا لا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، أَلا لا فَضْلَ لأَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلا بِالتَّقْوَى**»[3].

وفي ظلِّ دولة المدينة التي أسّسها رسول الله ﷺ، أكّد على قيمة العدل بين فئات المجتمع على اختلاف أعراقهم وأديانهم، حتى أنّ الرسول ﷺ تعامل بالعدل والإحسان مع غير المسلمين في المدينة ـ وقد كانوا أقليّة ـ فلم يُؤثَر أنّه ﷺ أو أحد من أصحابه تعرَّض إليهم بسوء أو اضطهاد أو تضييق أو تمييز.

ومن تأكيد الإسلام على قيمة العدل، وترسيخ المساواة بين المسلمين وغير المسلمين، أن أنزل الله عزَّ وجلّ قرآناً في واقعة تبيِّن مدى عدالة الإسلام وحُسن معاملته للآخر:

حين حاول بعض الصحابة ـ في عهد رسول الله ﷺ ـ أن يتستَّر على سارق مسلم،

(١) عيون الحكم والمواعظ: ص ٤٨.
(٢) سنن النسائي: ج ٨ ص ٧٤ ح ٤٨٩١.
(٣) مسند أحمد: ج ٥ ص ٤١١؛ تحف العقول: ص ٣٤.

وأن يفوّت العقاب عليه، وأن يقدِّم شخصاً آخر يهودياً ليُعاقَب مكانه، أنزل الله ثماني آيات في سورة النساء تدافع عن حقّ اليهودي، وتحثّ على إظهار العدالة، فقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ [النساء: ١٠٥] إلى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾﴾ [النساء: ١١٢].

ولهذه الآيات قصّة ذكرها المفسِّرون في أسباب النزول، وخلاصتها أنّ أحد المسلمين سرق مالاً من شخصٍ مسلم، وكان للسارق عشيرة تملك مواقع متقدّمة في المجتمع، وكانت الدلائل التي اتّبعها المسلمون ـ أو أرادوا أن يتّبعوها في التحقيق ـ تهدي إلى السارق الحقيقي، واجتمعت عشيرته للتشاور، وقرَّروا أن يُبعدوا التّهمة عنه، فجاؤوا بالمال المسروق ووضعوه عند يهوديّ هناك، لتثبت الجريمة عليه ويبرّأُ السارق، وحاولوا أن يخلقوا جوّاً يوحي بالثقة بالنتائج التي أرادوها أمام رسول الله ﷺ، ظنّاً منهم أنّ يهودية هذا الشخص تُساهم في استبعاد دقّة الاتهام عن السارق الحقيقي في التحقيق في المسألة، وتُسهّل ـ بالتالي ـ ثبوت التهمة عليه.

وقد خُيِّلَ إليهم أنّ الرسول ﷺ ربّما يميل إلى ما أرادوه أو ظنّوه، إرادةً منه لتبرئة المسلم على كلِّ حال.

ولكنَّ الله أراد أن يسدِّد رسوله ويُطلعه على جانب الغيب في المسألة، حتى لا يتوقّف أمام الإثباتات الظاهرية للقضيّة، على أساس أنّ القضاء في الإسلام يخضع للبيّنات والأيمان، فهي الوسائل المطروحة لدى القضاة، حتى ولو كان النبيّ ﷺ هو القاضي؛ الثابتة في قوله ﷺ: «**إنَّما أقضي بينكم بالأيمان والبيّنات**».

ولكن ذلك جارٍ على الأوضاع العادية في مسائل التحاكم؛ أمّا في القضايا التي تتعلّق بالخطّ المستقيم للعدالة بشكلٍ عام، فإنَّها ترتبط بالأجواء الداخلية

والسلوكية للتصوّر الإسلامي للعلاقات التي تعطي المسلمين الجوَّ الرائع في الأخلاق والسلوك، في ما يجب أن يتمثّلوه ويعيشوه في حياتهم، كما حدث في هذه القضية التي أراد الله من خلالها تقرير مبادئ عدّة في حياة المسلمين العاطفية والاجتماعية، من أجل أن لا تنحرف عن خط العدالة في ذلك كله[1]..

إنّ هذه الواقعة ـ بثبوتها في القرآن وبيانها في السيرة والسُّنّة النبوية ـ مثال صريح، وتطبيق قاطع لقيمتَيْ العدل والمساواة في الإسلام، وهي ممّا يساعد في نشر وتعميق روح المواطنة بين أبناء الوطن الواحد؛ إذ الإنسان دائماً يسعى إلى الإنصاف والعدالة والمساواة، ويرغب في أن يحيا في ظلِّ دولة تحقّق تلك القيم النبيلة بين فئات المجتمع وطوائفه.

❀ ❀ ❀

(١) أنظر: سنن الترمذي: ج ٥ ص ٢٤٤؛ المستدرك على الصحيحين: ج ٥ ص ٥٥٠ ح ٨٢٢٥؛ مجمع البيان: ج ٣ ص ١٦٠ـ١٦١.

فقه التعايش مع المنافقين

يُعدُّ النفاق والمنافقون خطراً داهماً وشرّاً مستطيراً على الإنسان والمجتمع، لذا حذَّر الإسلام من النفاق وأهله، وأنزل الله عزّ وجلّ سورة باسمهم، تُسمّى بسورة «المنافقون». قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾ [المنافقون: ١ - ٤].

ولا يوجد تناغم ـ بطبيعة الحال ـ بين مؤمن ومنافق، بل بينهما حواجز في السّمات الشخصية، نفسيةً كانت أو سلوكيةً. وهذه الحواجز قد أقرَّها الكتاب الكريم: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾ [الحديد: ١٣ ـ ١٤][1].

والسياق، في الآية الكريمة، يفيد أنّ المنافقين أحاطتهم ظلمة في يوم القيامة،

---

(١) فـ«النظر» إذا تعدى بـ«إلى» كان بمعنى إلقاء البصر نحو الشيء، وإذا تعدى بـ«في» كان بمعنى التأمل والتدبر. وإذا تعدى بنفسه ـ أي بدون حرف جر ـ أفاد معنى التأخير والانتظار. أنظر: مفردات القرآن: ص ٥١٨ ـ ٥١٩.

وقد طلب منهم ومن المؤمنين التقدُّم إلى دار قرارهم، ولكن يقع التغاير في النتيجة، فبينما نرى المؤمنين يسيرون بنورهم الذي يسعى بين أيديهم وبأيمانهم فيبصرون طريقهم ويهتدون إلى محلِّ إقامتهم، نرى المنافقين يتخبَّطون في تيه الظلام المغشيّ حولهم لا يهتدون سبيلهم فيتأخَّرون عن اللحوق بالمؤمنين، فيسأل المنافقون المؤمنين الانتظار حتى يلحقوا بهم ويأخذوا جذوة من نورهم ليستضيئوا به في طريقهم.

وهذا التعبير من باب إثارة الفكرة التي تضع الأشياء وجهاً لوجه أمام الحقيقة الصارخة..

فليس هناك نور في القضية التي يواجهونها بل لا بدّ أن يبحثوا وراءهم ليلتمسوا (النور) هناك في دار الدنيا، وهو تعبير على سبيل الاستهزاء.

ويأتي الخطاب: ﴿قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا ⁽١٣⁾﴾ [الحديد: ١٣]؛ أي: ارجعوا إلى دار الدنيا التي تركتموها وراء ظهوركم، وعملتم فيها ما عملتم من النفاق، والتمسوا من أعمالكم تلك النور..

ولكن أنّى يفيد صرخاتكم؛ وقد ضرب الله بينكم وبين المؤمنين باباً ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ⁽١٣⁾﴾ [الحديد: ١٣]، وهو يشبه حال المنافقين في الدنيا فقد كان لهم فيها اتصال بالمؤمنين، وهم مع ذلك محجوبون عنهم بحجاب، فكما كانوا في الدنيا صيَّرهم الله عزّ وجلّ في الآخرة.

إنّ هذه الآية الكريمة ترسم البون الشاسع بين خطِّ المؤمن وخطِّ المنافق، وإنّ الله عزّ وجلّ وضع آيات تصلح أن تكون عناوين بارزة لسلوكنا مع هذه الفئة المنحرفة:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا

وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾ [البقرة: ٢٠٤ـ٢٠٦].

هذه الآيات تعكس بصراحة صورة المنافق في كلِّ زمان ومكان، صورة الذي يبيع نفسه لخطِّ الشيطان، ونستفيد من أجوائها عدّة أمور:

١. الحرص على إعطاء الآخرين الثقة والتأييد والدعم من خلال المواقف، لا من خلال الكلمات والمظاهر.

٢. أن نلاحق هذين النموذجين في حركة الواقع؛ من أجل أن نتابع خطَّ النفاق بالرفض والمواجهة، من أجل إزاحته من واجهة الصورة لتخليص الناس من فساده.. بينما نتابع الخطَّ الأول بالتأييد والدعم.

٣. أن نتمثّل في وعينا المبادئ السلبية من الإفساد في الأرض وإهلاك الحرث والنسل؛ لنجعل منها أساساً للتعامل السلبي مع كلِّ البرامج.

٤. عدم تركيز العاطفة في معنى الحبّ أو عدم الحبّ بل هما ركيزتان للخطِّ الإيجابيّ والسلبيّ من العمل.

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّمَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾ [النساء: ٩١].

وهذه الآية الكريمة جاءت عقيب آية تذكر الكفّار، جاء في مقطع منها: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾﴾ [النساء: ٩٠].

والسؤال: لماذا عبّر القرآن الكريم بقوله ﴿فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ﴾ [النساء: ٩٠] في الكفار، وبقوله: ﴿فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ﴾ [النساء: ٩١] في المنافقين؟!

والجواب في شِقّين:

أحدهما: إشارة إلى أنّ المنافقين غير مأمونين في مواعدتهم وموادعتهم بدليل أنّه تعالى قال في آية الكفار: ﴿فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ ٩٠﴾، ولم يقل ذلك في آية المنافقين.

وثانيهما: إنّه عبّر بالشرط المنفي ﴿فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ﴾ الذي يفيد تنبيه المؤمنين على أن يكونوا على حذر منهم.

ونستوحي من هذه الآية عدّة دروس:

١. أن يتعمّق العاملون في دراسة النماذج البشرية الموجودة في الساحة من الفئات المنافقة، فلا يستسلموا للأجواء الحميمة وتقديم التنازلات لمجرّد أنّ هناك هدفاً في هداية الناس ينبغي للمسلم أن يستهدفه.. بل لا بدّ من دراسة تاريخ هؤلاء في سلوكهم العملي والتعرّف على حركتهم في الحاضر.

٢. أن يخرج العمل الإسلامي من منطق السذاجة المنطلقة من حالة الطهارة الروحية البريئة التي يعيشها العاملون، فيتحرّكون في الفراغ ويبذلون الجهد الضائع.

٣. على المؤمنين أَخْذ الحذر والحيطة في علاقتهم بالفئات التي تحمل هذا التفكير وتعمل لهذا الهدف، سواء كان ذلك على مستوى الأحزاب، أو على مستوى الأفراد، فلا يتّخذوا منهم أولياء.. ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ ٨٩﴾ [النساء: ٨٩]. وعلى العاملين أن يعاملوهم معاملة الأعداء من حيث الحذر في الموقف والعلاقة والمعاملة؛ ليأمنوا شرّهم ويحفظوا الناس من الوقوع في حبائلهم.

٤. أن ندرس حالة الحياديّين فنميّز بين الذين يحملون الحياد كموقف ينطلق من قناعاتهم النفسيّة فنحترم حيادهم تبعاً لمصلحة الإسلام والمسلمين وحالة الصراع بيننا وبين الفئات المعادية.. وبين الذين يلعبون بالحياد كورقة يحصلون فيها على امتيازاته من حيث الأمن الذي يمنحهم حريّة الحركة في اللعب على أكثر من جهة.

وعلينا ـ بعد ما قدّمناه ـ أن نفرّق بين أمرين:

الأول: بين تعامل الشريعة الإسلامية مع الآخر (أعني التعامل الحركي). وممّا قد تعجب له أنّ الوحي تحدَّث كثيراً عن قصة النبيّ عيسى عليه السلام في مكة، ولم يكن في مكة نصارى إلا غلام واحد لا يُحْسِن العربية. فسورة مريم من أوائل ما نزل، وقرأ منها جعفر بن أبي طالب أمام النجاشيّ. وتحدَّث الوحي عن موسى عليه السلام، وعن يهود في مكة.

والثاني: بين موقف الشريعة الإسلامية من (الآخر) من ناحية الصواب والخطأ.

وكانت الشريعة في منتهى الوضوح مع المنافقين، بل كان الوحي لهم بالمرصاد يفضحهم في كلِّ نازلة؛ يحكي مواقفهم، وأحاديثهم الخاصة، بل وما تكنّ صدورهم. وهذا كلّه مثبت في كتاب الله، وسُنّة رسوله ﷺ، ومنها نماذج:

﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [المائدة: ٥٢].

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ [آل عمران: ١٦٧ ـ ١٦٨].

المنافقون الطابور الخامس

هنـاك نمـاذج أخـرى مـن الناس يتحـدّث عنهـا القـرآن، فيقـول الله تعالى: ﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأحزاب: ١٨].

وهذا يعبّر - كما في المصطلح المعاصر - عن الطابور الخامس، وهم المنافقون الذين كانوا يحاولون إعاقة المسيرة وتخذيل المسلمين أمام الزلزال الذي حدث بفعل الحصار الذي أسرَّ به المسلمون من قِبَل الأحزاب ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾، أي سيروا معنا ولا تقفوا إلى جانب رسول الله ﷺ ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾. والبأسُ هنا كنايةٌ عن الحرب فهم ليسوا مستعدّيـن للمشاركة في الحرب ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴿١٩﴾﴾ [الأحزاب: ١٩]، بُخلاء لا يعطونكم ما تحتاجونه ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴿١٩﴾﴾ [الأحزاب: ١٩]، أي في ظلّ الحرب النفسيّة التي تزرع الخوف في القلوب والتي عبّر عنها القرآن ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾﴾ [الأحزاب: ١٠].

﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴿١٩﴾﴾ [الأحزاب: ١٩]، أي إنّهم شعروا أنّكم في موقع الهزيمة فأظهروا ما في نفوسهم ضدّ المؤمنين والمسلمين، فتحدّثوا بالكلمات الحادة التي تمثّل الإهانة للمسلمين ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾. فهم ليسوا مستعدّين أن يُعطوا من نفوسهم الخيـر ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ ﴾.

وهذا هو محلّ الشاهد، فهؤلاء الذين يتحرّكون في حال الحرب بطريقة التخذيل والتعويق للمسيرة، والتكلّم بشكلٍ سلبي ضدّ المسلمين دون إعطائهم شيئاً ممّا يحتاجونه، لم يؤمنوا، فالمؤمن هو الذي يعيش مع المؤمنين بكلّ معنى المشاركة في الحرب وفي السلم، وفي كلِّ أوضاعهم وحاجاتهم التي يحتاجونها في ساحة التحدّيات ﴿فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [الأحزاب: ١٩]؛ وإنّما

حبطت أعمالهم لأنّهم لم ينطلقوا من قاعدة، بل أبطنوا الكفر وأظهروا الإيمان، ومن الطبيعيّ أنَّ الكفر يُحبط عمل الإنسان.

وفي حوار رسول الله ﷺ مع الإمام عليّ عليه السلام قال:

«وَلَقَدْ قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنِّي لا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي مُؤْمِناً وَلا مُشْرِكاً؛ أَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَمْنَعُهُ اللهُ بِإِيمَانِهِ، وَأَمَّا الْمُشْرِكُ فَيَقْمَعُهُ اللهُ بِشِرْكِهِ، وَلَكِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ كُلَّ مُنَافِقِ الْجَنَانِ، عَالِمِ اللِّسَانِ، يَقُولُ مَا تَعْرِفُونَ، وَيَفْعَلُ مَا تُنْكِرُونَ»[1].

فهو وإن كان عالماً عارفاً بكم، ولكنّه عندما يتحرّك وينطلق، فإنّه يحرق المجتمع الإسلامي بخططه ومؤامراته وحقده وانحرافه.

تعامل الرسول ﷺ مع المنافقين

مشكلة المنافقين هي من أكثر المشاكل تعقيداً في الحياة الإسلامية، وقد أخذت حجماً كبيراً في المساحة القرآنية، في الحديث عن مواقفهم السلبيّة في المجتمع الإسلامي.

ومن هذا المبدأ فإنّ المنافقين كانوا موضع رقابة دقيقة دائمة من قبل المجتمع المسلم، كما كانوا موضع تشهير دائم من قبل الله في ما ينزله من آياته.

ولذا كانوا يعيشون الحذر من أن تنزل سورة تكشف سرائرهم ومخطّطاتهم وتفضح أوضاعهم، وهذا ما عبّر عنه الله سبحانه في قوله تعالى: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [التوبة: ٦٤].

وقد لاحظنا في التاريخ الإسلامي ـ في عهد النبيّ محمّد ﷺ ـ أنّهم لم يستطيعوا أن يقوموا بعملٍ كبير مضاد في مواجهة الإسلام والمسلمين، بل كلّ ما

(١) نهج البلاغة: الخطبة ٢٧؛ الغارات للثقفي: ج ١ ص ٢٤٨؛ عيون الحكم والمواعظ: ص ١٧٠.

تمكّنوا القيام به كان بعض أنواع الإثارة، والتنسيق مع اليهود والمشركين ممّا لا فائدة منه لهم في حساباتهم الثقافية، أو العمل على إشاعة الأكاذيب في المجتمع الإسلامي ممّا يكشفه القرآن أو النبيّ ﷺ أو المسلمون بوسائلهم الخاصة.

وقد كانوا في تلك المرحلة خاضعين للالتزامات الإسلامية ظاهراً، بحيث إنّهم إذا أرادوا أن يتخفّفوا من الواجبات الشرعية في الجهاد وغيره، يبادرون إلى تقديم الأعذار والمبرِّرات التي تتيح لهم الانسحاب بحجّة شرعيّة.

وقد كان القرآن الكريم يلاحق بطريقته الخاصّة كلّ حيثيّات هذه الظاهرة بقوّة، فتمكّن من فضح خلفيّاتها بوضوح، وعزل كلّ مواقعها الاجتماعية، وإبقائها موضعاً للمراقبة والتشهير بالمستوى الذي تسقط به قيمتهم التأثيرية في واقع المسلمين. هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، فإنّ الذين دخلوا في الإسلام رغبة ورهبة لم يدخلوا في خطِّ النفاق بأجمعهم، بل كان المنافقون منهم قلّة، فقد لاحظنا أنّ هؤلاء قد حسن إسلامهم عندما اندمجوا في المجتمع الإسلامي، وابتعدوا عن المؤثِّرات السلبيّة التي كانت تترك آثارها الضارة في شخصيّاتهم من خلال أجواء الكفر والضلال التي عاشوا داخلها، وأصبحوا من خيرة المسلمين؛ لأنّ مشكلة الكفر ـ في أغلب مواقعها ـ هي مشكلة جهل وتخلّف وابتعاد عن الأجواء الطاهرة التي تطهِّر أفكارهم وقلوبهم.

وفي ضوء ذلك، فإنّ الإيجابيات في هذا الجانب أكثر فاعلية في النتائج الطيّبة من السلبيات في النتائج الخبيثة.

ولعلّنا إذا درسنا مختلف التيّارات الفكرية، سواء منها الدينية وغير الدينية، لرأينا أنّ أغلب المنتمين إليها لم ينتموا من موقع قناعة فكرية، بل كانت الانتماءات خاضعة لعوامل ذاتية أو خارجية، كالمشاعر العاطفية أو المصالح، أو العلاقات

العامة والخاصة في ارتباط الناس بالواقع الاجتماعي أو السياسي أو الاقتصادي الذي يتحرّكون في داخله.

وهنا يجب الالتفات إلى نقطة مهمَّة، وهي أنّ الإسلام كان، ولا يزال، يخطِّط لبناء مجتمع محكم (دولة)، ينتمي الناس إلى هُويّته، ويحملون شعاره، وينضمّون إلى جيشه، ويتحرَّكون لتقوية مواقعه، من أجل أن يكون الدين كلّه لله.

ومن هذا المنطلق، كان لا بدَّ من العمل لإخراج أكبر قدر ممكن من الناس من ساحة الموقع المضاد في أجواء الكفر، إلى ساحة الموقع الإسلامي، لإضعاف الساحة الكافرة لحساب قوّة الساحة المسلمة، مع تحصين الموقف والموقع بالوسائل الدقيقة الأمنية التي تمنح الدولة المناعة وتحصِّنها من القوى المضادة في الداخل والخارج.

لذلك كانت مسألة الاستيعاب متحرِّكة على أكثر من صعيد وبأكثر من أسلوب في خطّة من الإحاطة التامّة والشمول الواسع.

بعض صور المنافقين في المدينة

لعب المنافقون دوراً خطيراً في الوقيعة بين المسلمين وتقليب أحزاب الكفر عليهم، بل وإيذاء رسول الله ﷺ والإساءة إليه وإلى عرضه[1]، ومع ذلك صبر رسول الله ﷺ عليهم؛ لِعِلْمه أنّ عوامل الهدم والانقراض تعمل فيهم، وأنّهم سرعان ما سينتهي أمرهم ويبطل مفعول مكرهم وشرِّهم.

فمن بين مَنْ عُرف بالنفاق من المدينة: عبد الله بن أُبي بن أبي سلول، وجلاس بن سويد، والحارث بن سويد، وزوى بن الحارث، وبنتل بن الحارث، ومربع بن

(١) أنظر: تفسير العياشي: ج ١ ص ٢٠١ ح ١٥٧، ومجمع البيان: ج ٢ ص ٦٢٨، وبحار الأنوار: ج ٢٠ ص ٩١ - ٩٣، والصافي: ج ١ ص ٣٠٩، وتفسير نور الثقلين: ج ١ ص ٤٠٢.

قيظي، وأوس بن قيظي، وحاطب بن أمية بن رافع، وبشير بن أبيرق أبو طعمة، وقزمان..

ومَن عُرف بالنفاق من أحبار يهود المدينة: زيد بن اللصيت، ورافع بن حريملة، ورفاعة بن زيد بن التابوت، وسويد بن الحارث، وسعد بن حنيف، ونعمان بن أوفى بن عمرو، وعثمان بن أوفى، وسلسلة بن يرهام، وكنانة بن صوريا[1]..

يقول جابر بن عبد الله الأنصاري: كُنَّا فِي غَزَاةٍ فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلاً مِنْ الأَنْصَارِ، فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: يَا لَلأَنْصَارِ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَسَمِعَ ذاك رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ: «مَا هَذَا»؟! فَقَالُوا: كَسَعَ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلاً مِنْ الأَنْصَارِ فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ يَا لَلأَنْصَارِ وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَقَالَ النبيّ ﷺ: **دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ**، فَسَمِعَ بذلك عبد الله بن أُبَيّ ـ وكان رأس المنافقين ـ فَقَالَ: أَوَقَدْ فَعَلُوا وَاللهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ (رض): دَعْنِي يَا رَسُولَ اللهِ أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ النبيّ ﷺ: «**دَعْهُ لا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ محمّداً يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**»[2].

وعن عاصم بن عمر بن قتادة قال: إِنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عبد الله بن أُبيّ بْنِ سَلُولٍ، أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّكَ تُرِيدُ قَتْلَ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ، فِيمَا بَلَغَكَ عَنْهُ، فَإِنْ كُنْتَ فَاعِلاً فَمُرْنِي بِهِ فَأَنَا أَحْمِلُ إِلَيْكَ رَأْسَهُ، فَوَاللهِ، لَقَدْ عَلِمَتِ الْخَزْرَجُ مَا كَانَ بِهَا رَجُلٌ أَبَرُّ بِوَالِدِهِ مِنِّي، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ تَأْمُرَ بِهِ غَيْرِي فَيَقْتُلَهُ، فَلا تَدَعْنِي نَفْسِي أَنْ أَنْظُرَ إِلَى قَاتِلِ عبد الله بن أُبيّ يَمْشِي فِي النَّاسِ فَأَقْتُلَهُ، فَأَقْتُلَ مُؤْمِنًا بِكَافِرٍ فَأَدْخلَ النَّارَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**بَلْ نَرْفُقُ بِهِ وَنُحْسِنُ صُحْبَتَهُ مَا بَقِيَ مَعَنَا**»[3].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ج ١ ص ٥١٩ ـ ٥٢٨.
(٢) صحيح البخاري: ج ٤ ص ١٨٦١ ح ٤٦٢٤.
(٣) السيرة النبوية لابن هشام: ج ٢ ص ٢٩٢؛ تاريخ الطبري: ج ٢ ص ٦٢١.

لقد كان المنافقون يتآمرون على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه ليلاً ونهاراً، في أوقات السلم والحرب، إلا أنّ رسول الله ﷺ آثر في معاملته معهم العفو والحلم والصبر، مع أخذ الحذر والحيطة في التعامل معهم.

ومثال صبر النبيّ ﷺ على أذاهم ما ورد أنّ مربع بن قيظي رفض مرور رسول الله ﷺ في حائطه ورسول الله عامد إلى أُحد، وقال: لا أحلُّ لك يا محمّد ـ إن كنت نبيّاً ـ أن تمرَّ في حائطي. وأخذ في يده حفنة من تراب، ثم قال: والله لو أعلم أني لا أصيب بهذا التراب غيرك لرميتك به، فابتدره القوم ليقتلوه، فقال رسول الله ﷺ: «**دعوه فهذا الأعمى، أعمى القلب، أعمى البصر**»[1].

إنَّ مربع بن قيظي هو أحد المنافقين الذين أظهروا الإيمان بأفواههم وأضمروا الكفر، وما فعله مع رسول الله ﷺ كفر صريح لا تأويل فيها، ومع ذلك لم يقتله رسول الله ﷺ، ولم يأمر بقتله، بل لم يسمح لأصحابه أن يقتلوه، واكتفى بأن وسمه بعمى القلب والبصر.

ورغم أنّ الرسول ﷺ كان يعلم أسماء المنافقين وأمر بإغلاظ القول لهم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [التوبة: ٧٣]، إلا أنّه لم يصرِّح بأسمائهم، اتباعاً لهدي القرآن الكريم في الحكاية عنهم، ولذا ما كان يعرف أسماء المنافقين بعد النبيّ ﷺ إلا حذيفة بن اليمان صاحب سرِّ رسول الله ﷺ في المنافقين[2].

لقد علَّمنا الرسول ﷺ أنّ المنافقين داء يجب معالجته بالحذر منه وليس باجتثاثه؛ ولذا رفض قتل المنافقين في أول عهده بالمدينة حتى لا يتحدّث الناس أنّ محمّداً يقتل أصحابه، بل احتاط منهم وتابع أفعالهم.

(١) الإصابة في تمييز الصحابة: ج ٦ ص ٦٦ـ٦٧؛ البداية والنهاية: ج ٣ ص ٢٣٩؛ الروض الأنف: ج ٢ ص ٣٨١.
(٢) أسد الغابة: ج ١ ص ٤٤٢.

أما في عهد المدينة الأخير، بعد استقرار الدولة، واستتباب دعائمها، فقد أخذهم بالشدّة والغلظة، إلا أنّه لم يعمل فيهم القتل أيضاً؛ لأنّه كما قال لخالد بن الوليد في أحدهم: «**لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ يُصَلِّي**»، فقال خالد: وَكَمْ مِنْ مُصَلٍّ يَقُولُ بِلِسَانِهِ مَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ؟! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنِّي لَمْ أُؤْمَرْ أَنْ أَنْقُبَ عَنْ قُلُوبِ النَّاسِ، وَلا أَشُقَّ بُطُونَهُمْ**»[1].

هكذا تعامل الرسول ﷺ مع جميع رعايا المجتمع في المدينة، رغم ما يكنّه له البعض من عداء وكراهية، وما يبطنونه من حقد دفين، فعاملهم بالرِّفق واللين حيناً، وبالغلظة والشدّة حيناً آخر؛ مقدِّماً نموذجاً فريداً للعالم أجمع للتعايش السلمي مع جميع أفراد البشر دون تأجيج للفتنة، وتنكيل بالخصوم، وهو الأمر الذي يجب على المسلمين اتِّباعه كي لا يشقّوا صفَّ وحدة الأمّة في وقتٍ هي في أمسِّ الحاجة إلى الوحدة، وفي وقت يحاول أعداؤها زرع الفتنة وبثّ الوهن بين أبنائها، تلك هي الأسوة الحسنة في هذه النماذج التي قدّمها الرسول ﷺ للتعامل مع الآخر الحاقد، إنّه التعايش والحذر وحفظ وحدة الأمة وحماية أمنها واستقرارها.

يروي عبد الله بن أبي رافع قال:

«سَمِعْتُ علياً عليه السلام يَقُولُ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَا وَالزُّبَيْرَ وَالْمِقْدَادَ. فَقَالَ: «انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ، فَإِنَّ بِهَا ظَعِينَةً مَعَهَا كِتَابٌ فَخُذُوا مِنْهَا». قَالَ: فَانْطَلَقْنَا تَعَادَى بِنَا خَيْلُنَا حَتَّى أَتَيْنَا الرَّوْضَةَ، فَإِذَا نَحْنُ بِالظَّعِينَةِ. قُلْنَا لَهَا: أَخْرِجِي الْكِتَابَ، قَالَتْ: مَا مَعِي كِتَابٌ، فَقُلْنَا: لَتُخْرِجِنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَنُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ. قَالَ: فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا، فَأَتَيْنَا بِهِ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَإِذَا فِيهِ: مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ ـ إِلَى نَاسٍ بِمَكَّةَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ـ يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

(١) صحيح مسلم: ج ٢ ص ٧٤٢ الحديث ١٠٦٤.

«يا حَاطِبُ، مَا هَذَا؟» قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، لا تَعْجَلْ عَلَيَّ، إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ ـ يَقُولُ: كُنْتُ حَلِيفًا، وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا ـ وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ مَنْ لَهُمْ قَرَابَاتٌ يَحْمُونَ أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنْ النَّسَبِ فِيهِمْ أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ قَرَابَتِي، وَلَمْ أَفْعَلْهُ ارْتِدَادًا عَنْ دِينِي، وَلا رِضًا بِالْكُفْرِ بَعْدَ الْإِسْلامِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكُمْ»... فَأَنْزَلَ اللهُ السُّورَةَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١)﴾ [الممتحنة: ١]»[(١)].

ولعل تركه ﷺ عقوبة المنافقين؛ لما ذكر في الأحاديث ممّا روي عنه ﷺ: «لا يَتَحدَّثُ الناسُ أنَّ محمّداً يَقتُلُ أَصحَابَهُ»[(٢)]. فلم يقل النبيّ ﷺ إنّ المنافقين لا يقتلون، أو لا يعاقبون، وإنّما ذكر مانع عقوبتهم، إن زال هذا المانع عوقبوا.

وحين أمن المنافقون العقوبة، تمادوا، فنزلت الآيات تهدِّدهم بالقتل: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا (٦١)﴾ [الأحزاب: ٦٠ ـ ٦١].

❀❀❀

(١) صحيح البخاري: ج ٣ ص ١٠٩٥ ح ٢٨٤٥ و ج ٤ ص ١٤٦٣ ح ٣٧٦٢؛ صحيح مسلم: ج ٤ ص ١٩٤١ ح ٢٤٩٤.

(٢) صحيح البخاري: ج ٤ ص ١٨٦١ ح ٤٦٢٢؛ صحيح مسلم: ج ٤ ص ١٩٩٨.

فقه التعايش مع المخالفين

يتمتّع غير المسلمين في ظلِّ مجتمع المدينة بالحرية العقدية والاستقلال الديني، وهو ما ظهر جليّاً في الوثيقة التي عقدها الرسول ﷺ مع أهل الديانات والأعراق المختلفة في المدينة، فلم يُكرِه أحداً على الدخول في الإسلام، امتثالاً لما ذكره الله ـ عزّ وجلّ ـ في محكم التنزيل: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٩٩﴾ [يونس: ٩٩]، وهو ما نجده واضحاً حين أقرَّ رسول الله كلّاً على دينه.

وفي إطار هذه الوثيقة تعامل الرسول ﷺ مع جميع الطوائف على أساس من العدل والمساواة واحترام الآخر، فقد حفظ لليهود جميع حقوقهم الدينية والمدنية، وذلك من خلال بنود المعاهدة التي أبرمها مع القبائل اليهودية في المدينة، وقد حافظ الرسول ﷺ والمسلمون على هذه العهود والمواثيق مع اليهود، وجرت بينهم معاملات شتى، حتى رهن الرسول درعه عند يهودي.

وفي ظلِّ هذا الأمان الديني والاجتماعي والاقتصادي الذي كفله الرسول لليهود، راجت أسواقهم، وكانت نساء المسلمين يذهبن ليبعن ويشترين وحدهن، ورغم ذلك لم يلتزم اليهود بهذه المعاهدات والمواثيق، وخرجوا عنها، ونتج عن ذلك نماذج ثلاثة تعامل الرسول مع كلِّ نموذج وفق ما أقرَّته الوثيقة.

النموذج الأوّل: ويتمثّل في يهود بني قَيْنُقَاع

وكانوا أوّل مَن نقض المواثيق، حيث تعدَّوا ـ بعد نصر المسلمين في غزوة بدر ـ على امرأة مسلمة في أحد أسواقهم، وكشفوا عورتها أمام السوق.. قال الواقدي: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، وادعته يهود كلّها، وكتب بينه وبينها كتاباً، وألحق رسول الله ﷺ كلّ قوم بحلفائهم، وجعل بينه وبينهم أماناً، وشرط عليهم شروطاً، فكان فيما شرط إلا يظاهروا عليه عدوّاً. فلما أصاب رسول الله ﷺ أصحاب بدر، وقدم المدينة، بغت يهود، وقطعت ما كان بينها وبين رسول الله ﷺ من العهد، فأرسل رسول الله ﷺ إليهم فجمعهم، ثمّ قال: «**يا معشر يهود أسلموا، فوالله إنكم لتعلمون أنّي رسول الله، قبل أن يوقع الله بكم مثل وقعة قريش**».

فقالوا: يا محمّد لا يغرّنك مَن لقيت، إنّك قهرت قوماً أغماراً، وإنّا والله أصحاب الحرب، ولئن قاتلنا لتعلمنَّ أنّك لم تقاتل مثلنا(١).

فبينا هم على ما هم عليه من إظهار العداوة ونبذ العهد جاءت امرأة نزيعة(٢) من العرب تحت رجل من الأنصار إلى سوق بني قينقاع، فجلست عند صائغ في حليٍّ لها، فجاء رجل من يهود بني قينقاع من ورائها ولا تشعر فخلَّ(٣) درعها إلى ظهرها بشوكة، فلمّا قامت المرأة بدت عورتها، فضحكوا منها.

فقام إليه رجل من المسلمين فأتبعه فقتله، فاجتمعت بنو قينقاع وتحايشوا(٤) فقتلوا الرجل، ونبذوا العهد إلى النبيّ ﷺ وحاربوا وتحصَّنوا في حصنهم، فسار

---

(١) المغازي: ج ١ ص ١٦٥؛ أحكام أهل الذمة: ج ٣ ص ١٤١١؛ الصارم المسلول على شاتم الرسول: ج ٢ ص ١٣٦.

(٢) المرأة التي تزوج في غير قومها فتنقل.

(٣) خلّ: جمع بين طرفي الشيء.

(٤) جاؤوه من حواليه.

إليهم رسول الله ﷺ، فكانوا أوّل مَنْ سار إليه رسول الله ﷺ، وأجلى يهود قينقاع، وكانوا أول يهود حاربت[1].

كما أنّ هناك أسباباً غير مباشرة، وهو: تجسّس اليهود على المسلمين لصالح المشركين، ونقْلهم المعلومات عن نيّات المسلمين وتحرّكاتهم إلى قريش، وإظهار عداوتهم بوضوح للمسلمين.

وفي نصِّ الواقدي تلوح أمور:

أ ـ إنّ العمل البطولي الذي قام به المسلمون في بدر رفع من معنويّاتهم وبرز عزّة المؤمنين.

ب ـ إنّ يهود بني قينقاع أظهروا حسدهم وبغضهم لنصر المسلمين الساحق، ممّا جعل هذا الحسد يتحوّل إلى تحدٍّ سافر من قبلهم. وقد ظهر هذا واضحاً في مقولتهم: «إنك قهرت قوماً أغماراً... ولئن قاتلنا لتعلمنّ أنّك لم تقاتل مثلنا».

ج ـ لا يعني أنّ سبب إجلائهم يعود إلى عدم دخولهم في الإسلام؛ لأنّ الإسلام كان يقبل التعايش السلميّ معهم، وأنّ نصوص صحيفة المدينة تؤكّد إعطاء اليهود حرّيتهم الدينية والمدنية في المدينة، وإنّما يعود سبب الإجلاء إلى ما أظهروه من روح عدائية ضدّ المسلمين، انتهت إلى الإخلال بالأمن داخل المدينة، ومن ذلك قصة المرأة المسلمة معهم.

د ـ لقد كان هذا التحوّل إيذاناً بظهور آثار الخيانة من قبل بني قينقاع، وهم أصحاب القوّة والعدد من بين اليهود والتي لا يُستهان بها.

هـ ـ كانت المواجهة والجلاء هو الحلّ الوحيد؛ ليكون درساً قاسياً حتى يتّعظ به قبائل اليهود الأخرى ـ بنو النضير وبنو قريظة ـ، ولكي تتحطّم العنجهية

(١) المغازي: ج ١ ص ١٧٦ ـ ١٧٨.

اليهودية أمام صلابة المسلمين. ونزلت الآية الكريمة: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران: ١٢ - ١٣][1]، كرسالة شديدة اللهجة موجَّهة إلى يهود ومواليهم في أن يلزموا حدودهم وينكفئوا على أعقابهم.

فحاصرهم المسلمون في قلاعهم خمسة عشر يوماً، حتى اضطرّوهم على التسليم على أنّ لهم أموالهم، وأنّ لهم النساء والذرية، فأمر بهم فكتفوا.

ثم كلّمه فيهم حليفهم عبد الله بن أُبي، وألحّ في ذلك قائلاً: أربعمائة حاسر وثلاثمائة ذارع منعوني من الأحمر والأسود وتحصدوهم في غداة واحدة؟

فقال رسول الله: «هم لك».

وأمر بهم أن يجلوا عن المدينة.

وتولّى أمر ذلك عبادة بن الصامت، فلحقوا بأذرعات، وتولّى قبض أموالهم محمّد بن مسلمة، فقُسّمت بين الصحابة، بعد إخراج الخمس للرسول ﷺ[2]. وبهذا تخلّص المسلمون من هذا (الرتل الخامس) الذي كان يعيش بين ظهرانيهم؛ فينقل أخبارهم، ويكشف أسرارهم.

وكان عبادة بن الصامت قد تبرّأ من حلفهم عندما حاربوا الرسول ﷺ، وفيه وفي عبد الله بن أُبيّ نزل قول الله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: ٥١].

---

(١) آل عمران: ١٢ـ١٣.

(٢) المغازي: ج ١ ص ١٧٧ ـ ١٧٨، والطبقات الكبرى: ج ٢ ص ٩٢.

ولا شك أنّ عمل الرسول الكريم ﷺ مع عبد الله بن أُبي تنطوي على حكمة بالغة، وهي أن تظلّ العدالة بين الناس في مأمن من التلاعب، لكي لا يتّخذ الحاكم الأدلة الوجدانية أو الاستنتاجية وحدها ذريعة إلى الإضرار ببعض الناس بدون وجه حقّ[1].

النموذج الثاني: يهود بني النضير

مهما اختلفت الروايات في شأن تفصيل أحداث هذه الغزوة إلا أنّ المحدِّثين اتّفقوا على أنّ السبب الرئيس هو محاولة إقدام يهود بني النَّضير على قتل الرسول الأكرم ﷺ[2].

تقول المصادر: إنّ قريشاً أرسلت إلى اليهود، وهدَّدتهم بالحرب إن لم يقاتلوا الرسول ﷺ، فاستجاب بنو النضير لذلك، ووضعوا خطة يقتلون بها النبيّ ﷺ غدراً. فقد طلبوا منه أن يخرج إليهم في ثلاثين رجلاً من أصحابه ليلتقيَ بثلاثين من أحبارهم في موضع وسط ليحدِّثهم، فإن صدَّقوه آمنت يهود. فلمّا جاؤوا قريباً من المكان اقترحوا على النبيّ ﷺ أن يجتمع ومعه ثلاثة من أصحابه وثلاثة من أحبارهم، وقد حمل هؤلاء اليهود الثلاثة خناجرهم، ولكنَّ امرأة منهم أفشت سرّهم لأخٍ لها مسلم، فأخبر النبيّ ﷺ، فرجع عنهم، ثم استعدّ، وحاصرهم بجنوده حتى نزلوا على الجلاء، وعلى أنّ لهم ما حملت الإبل إلا السلاح، فحملوا أمتعتهم وأبواب بيوتهم.

وتسبَّب ذلك في قرار لوضع حدٍّ لممارساتهم الإجرامية، فكان القرار طردهم

---

(١) فقه السيرة، للبوطي: ص ٨٢ـ٨٣.

(٢) المصنف: ج ٥ ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠، ومستدرك الحاكم: ج ٢ ص ٤٨٣، ودلائل البيهقي: ج ٣ ص ١٨٠ ـ ١٨١، وسنن أبي داود: ج ٣ ص ٤٠٤ ـ ٤٠٦ ح ٣٠٠٤، وفتح الباري: ج ١٥ ص ٢٠٣.

من المدينة خلال عشرة أيام، فمن رأوه بعد ذلك ضُرِبت عنقه[1].

وعندما استعدّوا للخروج حرَّضهم عبد الله بن أُبيّ بن سلول على عدم الخضوع ومنّاهم بالوقوف إلى جانبهم، فأعلنوا العصيان، فحاصرهم المسلمون.

ويحدِّثنا القرآن الكريم عن هذه الحادثة: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الحشر: ١١ ـ ١٢].

ولقد أكّد الله عزّ وجلّ كذب المنافقين بصورة ديناميكية:

﴿ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ ﴾

﴿ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ ﴾

﴿ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ﴾

﴿ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴾

إنّ هذه الصورة تختلف عمّا كانت عليه في الغزوات السابقة، فلئن كان التحدّي سافراً في أُحد، فلقد تواروا وراحوا يعملون في الخفاء، إذ لم يعد يملكون القوة على المواجهة والتحدّي...

فأسقط القرآن بهذه الآيات أقنعتهم المزيّفة ممّا جعلهم يعيشون الرعب والهلع، إذ لم يبقَ لهم إلا خيطٌ رفيعٌ واهٍ من التظاهر بالإسلام. ولن يفيدهم إلا التوبة النصوح لله سبحانَهُ وتعالى.

(١) م.س.

وكانت نتيجة هذه الأماني المزيّفة اندحار يهود بني النضير وإجلاءهم عن المدينة المنوّرة. نتيجة تآمرهم على أمر خطير وهو قتل رئيس الدولة، الذي ضمن لهم سُبُل العيش الآمن، وأنعش اقتصادهم وتجارتهم، فحاصرهم الرسول ﷺ في ديارهم، فقذف الله في قلوبهم الرعب، وخرجوا من بيوتهم بعد أن خرَّبوها حسداً للمسلمين أن يسكنها أحد منهم من بعدهم.

النموذج الثالث: يهود بني قُرَيْظَة

لقد تعامل النبيّ ﷺ بشدّة مع يهود بني قريظة وخيانتهم لرسول الله والمؤمنين في المدينة، وكان غدرهم أشدّ من غدر غيرهم من اليهود، فقد سعوا إلى خيانة لو تمّت لهم لفُنِيَ المسلمون عن آخرهم، فقد نقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ وتحالفوا مع أعدائه من المشركين الذين قَدِموا لغزو المدينة في غزوة الأحزاب، رغم ما أقرّوه في وثيقة المدينة من بنود تمنع التحالف مع قريش أو مساعدة مَنْ يهاجم المدينة، وهو أمر يهدّد الدولة كلّها، وفيه خيانة المواطنين لدولتهم وتآمرهم مع أعداء الوطن ضده.

والملاحظ هنا أنّ يهود بني قريظة كانوا مدركين لأمر خيانتهم لعهدهم مع رسول الله ﷺ والمؤمنين؛ لأنّهم بمجرّد أن ارتدّ مشركو قريش عن المدينة رجعوا إلى صياصيهم وتحصّنوا بها، وتحسّبوا لخوض المعركة مع النبيّ ﷺ.

والأمر الآخر أنّهم حُوصروا خمساً وعشرين ليلة فلم يرد أنّهم اعتذروا أو طلبوا سلماً أو صلحاً مع رسول الله ﷺ، ولكن أخذتهم العزّة بالإثم، وظنّوا أنّهم مانعتهم حصونهم من الله ورسوله، وأنّ المؤمنين سيرتدّون عنهم مغلوبين على أمرهم.

فلما اشتدَّ حصرهم، واشتدَّ البلاء قيل لهم: انزلوا على حكم رسول الله ﷺ.

ولأوّل سابقة في التاريخ يسمح صاحب السلطة للمجرم والخائن أن يختار قاضيه ومن يحكم عليه بالعقوبة، فاختار اليهود سعد بن معاذ، الذي قال: (فإنّي أحكم فيهم أن تقتل مقاتليهم وتُسبى ذراريهم وتقسم أموالهم). فقال رسول الله: «**لقد حكمت فيهم بحكم الله عزّ وجلّ وحكم رسوله**»[١].

ونفّذ الرسول ﷺ حكم الله فيهم، وكانوا أربعمائة على الأرجح. ولم ينجُ إلا بعضهم، وهم ثلاثة؛ لأنّهم أسلموا، فأحرزوا أموالهم، وربّما نجا اثنان آخران منهم بحصولهم على الأمان من بعض الصحابة، أو لِمَا أبدوه من التزام بالعهد أثناء الحصار. وربّما نجا آخرون لا يتجاوزون عدد أفراد أسرة واحدة، إذ يُفهم من رواية ـ عند ابن إسحاق وغيره ـ أنّ الرسول ﷺ وهب لثابت بن قيس بن الشمّاس ولد الزبير بن بَاطَا القُرَظي، فاستحياهم، منهم عبد الرحمن بن الزبير، الذي أسلم.

وجُمع الأسرى في دار بنت الحارث النجارية، ودار أسامة بن زيد، وحُفرت لهم الأخاديد في سوق المدينة، فسيقوا إليها المجموعة تلو الأخرى لتضرب أعناقهم فيها. وقُتلت امرأة واحدة منهم، لقتلها خلّاد بن سويد (رض)، حيث ألقت عليه حجراً، ولم يُقتل الغلمان ممّن لم يبلغوا سنّ البلوغ.

ثم قسّم الرسول ﷺ أموالهم وذراريهم بين المسلمين[٢].

هكذا كان يتعامل رسول الله ﷺ مع غير المسلمين في دولة المدينة تعاملاً قائماً على العدل والرحمة والتسامح، دون تفريق بينهم وبين المسلمين، فهم على درجة واحدة في إطار المواطنة والولاء للدولة، أمّا من خرج عن مصلحة الأمّة يريد إشاعة الفتن وخيانة الوطن، والاستقواء بالأعداء، فمع تطبيق مبدأ الرحمة

(١) مسند أحمد: ج ٦ ص ١٤١.
(٢) صفوة السيرة النبوية: ص ٣١٩ـ٣٢٠.

والرأفة معه يكون عقابه بقدر مخالفته. ولا زالت الدول تحكم بقتل الخونة الذين يتواطؤون مع الأعداء حتى زماننا هذا.

وأما مَن لم ينهنا الله عنهم، فمعاملتهم تكون بالحسنى والحلم واللِّين، قال الله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ [الممتحنة: ٨].

وإذا كان هذا الحكم عامّاً مع ذوي الأديان والأعراق المختلفة، فما الظنّ إذا كان هؤلاء إخوة في الوطن وشركاء فيه، يحافظون على أمنه واستقراره ويقفون في وجه أعدائه والمتربّصين به، فضلاً عن أنّهم أقرب مودّة للمؤمنين! قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [المائدة: ٨٢]. فهم أولى بحُسن المعاملة، وتحقيق مراد الله منّا فيهم.

❁ ❁ ❁

فقه صلح الحديبية

الحديبية: موضع مشهور في طريق جدّة ـ مكة القديم، يُعرف اليوم بـ(الشُمَيْسي). وتبعد الحُديبيّة عن المسجد الحرام قرابة ٢٥ كلم، والطريق إليها من مكة كالتالي: (مكة ـ الحديبية ـ حدّاء ـ بحرة ـ أم السلام ـ جدة).

وهي ليست من الحرم وتبعد عن أنصاب الحرم حوالي (١,٥ كلم)[١].

خرج الرسول ﷺ وأصحابه قاصدين مكة محرمين يسوقون هديهم إلى البيت الحرام يبتغون العمرة، لا يحملون سلاحاً، ولا يرمون حرباً[٢]، إلا أنّ مشركي مكة اعترضوا طريقهم، وأصرّوا على صدِّ رسول الله ﷺ وأصحابه، فقال رسول الله ﷺ: **«إِنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ، وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، وَإِنَّ قُرَيْشاً قَدْ نَهِكَتْهُمُ الْحَرْبُ، وَأَضَرَّتْ بِهِمْ، فَإِنْ شَاؤوا مَادَدْتُهُمْ مُدَّةً وَيُخَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ»**[٣].

وروى القمّي في تفسيره ـ بسند صحيح ـ عن عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله (جعفر الصادق) عليه السلام في حديث طويل، وكان من كلامه عليه السلام: **«فلمّا نزل رسول الله ﷺ الحديبية، خرجت قريش يحلفون باللاّت والعزّى لا يَدَعون محمّداً يدخل مكة وفيهم عينٌ تطرف، فبعث إليهم رسول الله ﷺ: إنّي لم آتِ**

(١) معالم فقه المناسك: ج ١ ص ٤٩٥.

(٢) عن معاوية بن عمّار، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «اعْتَمَرَ رَسُولُ الله ﷺ ثَلَاثَ عُمَرٍ مُفْتَرِقَاتٍ: عُمْرَةً فِي ذِي الْقَعْدَةِ أَهَلَّ مِنْ عُسْفَانَ وَهِيَ عُمْرَةُ الْحُدَيْبِيَةِ، وَعُمْرَةً أَهَلَّ مِنَ الْجُحْفَةِ وَهِيَ عُمْرَةُ الْقَضَاءِ، وَعُمْرَةً أَهَلَّ مِنَ الْجِعْرَانَةِ بَعْدَ مَا رَجَعَ مِنَ الطَّائِفِ مِنْ غَزْوَةِ حُنَيْنٍ»، من لا يحضره الفقيه: ج ٢ ص ٢٧٥ ح ١٣٤١.

(٣) صحيح البخاري: ج ٣ ص ١٩٣ ح ٢٥٨٣.

لحرب، وإنّما جئت لأقضي نسكي، وأنحر بُدني، وأخلّي بينكم وبين لحماتها»[1].

وأتاه بُديل بن ورقاء الخزاعي في رجال من خزاعة ـ وكانوا ناصحين لرسول الله لا يخفون عنه شيئاً ـ فسألوه: ما الذي جاء به؟

فقال لهم ﷺ مثل ما قال لبشر بن سفيان، وأنّه لم يأتِ يريد حرباً وإنّما جاء زائراً للبيت ومعظّماً لحرمته.

فرجع بُديل الخزاعي ورجاله إلى قريش فقالوا لهم: يا معشر قريش، إنّكم تعجلون على محمّد، إنّ محمّداً لم يأتِ لقتال، وإنّما جاء زائراً هذا البيت.

فقالوا: وإن كان لا يريد قتالاً فوالله لا يدخلها علينا عنوةً، ولا تحدّث بذلك عنّا العرب[2].

وفي خبر الكليني ـ بسند حسن أو صحيح ـ عن الصادق عليه السلام قال: ثُمّ أَرْسَلُوا الْحُلَيْسَ[3]، فَرَأَى الْبُدْنَ وَهِيَ تَأْكُلُ بَعْضُهَا أَوْبَارَ بَعْض، فَرَجَعَ وَلَمْ يَأْتِ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَقَالَ لأَبِي سُفْيَانَ: يَا أَبَا سُفْيَانَ، أَمَا وَاللهِ مَا عَلَى هَذَا حَالَفْنَاكُمْ عَلَى أَنْ تَرُدُّوا الْهَدْيَ عَنْ مَحِلِّه. فَقَالَ: اسْكُتْ، فَإِنَّمَا أَنْتَ أَعْرَابِيٌّ. فَقَالَ: أَمَا وَاللهِ، لَتُخَلِّيَنَّ عَنْ محمّد وَمَا أَرَادَ، أَوْ لانْفَرِدَنَّ فِي الأَحَابِيشِ. فَقَالَ: اسْكُتْ حَتَّى نَأْخُذَ مِنْ محمّد وَلْثاً[4].

فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ عُرْوَةَ بْنَ مَسْعُودٍ[5] وَقَدْ كَانَ جَاءَ إِلَى قُرَيْشٍ فِي الْقَوْمِ الَّذِينَ أَصَابَهُمُ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ. كَانَ خَرَجَ مَعَهُمْ مِنَ الطَّائِفِ، وَكَانُوا تُجَّاراً، فَقَتَلَهُمْ،

(١) تفسير القمّي: ج ٢ ص ٣٠٩ وما بعدها، وأنظر: الكافي: ج ٨ ص ٣٢٢ـ٣٢٧ ح ٥٠٣، وتاريخ الأمم والملوك: ج ٢ ص ٢٨١ـ٢٨٢.

(٢) السيرة النبوية: ج ٣ ص ٣٢٥.

(٣) حليس بن علقمة، وكان يومئذ سيد الأحابيش.

(٤) أي عهداً.

(٥) وهو صهر أبي سفيان على ابنته ميمونة، فهو عديل رسول الله ﷺ.

وَجَاءَ بِأَمْوَالِهِمْ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَبَى رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يَقْبَلَهَا، وَقَالَ: «هَذَا غَدْرٌ وَلا حَاجَةَ لَنَا فِيهِ».

فَأَرْسَلُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، هَذَا عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ قَدْ أَتَاكُمْ، وَهُوَ يُعَظِّمُ الْبُدْنَ.

قَالَ: «فَأَقِيمُوهَا»، فَأَقَامُوهَا.

فَقَالَ: يَا محمّد، مَجِيءَ مَنْ جِئْتَ؟

قَالَ: «جِئْتُ أَطُوفُ بِالْبَيْتِ، وَأَسْعَى بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَأَنْحَرُ هَذِهِ الإِبِلَ، وَأُخَلِّي عَنْكُمْ عَنْ لُحْمَانِهَا».

قَالَ: لا وَاللاتِ وَالْعُزَّى، فَمَا رَأَيْتُ مِثْلَكَ رُدَّ عَمَّا جِئْتَ لَهُ؛ إِنَّ قَوْمَكَ يُذَكِّرُونَكَ اللهَ وَالرَّحِمَ أَنْ تَدْخُلَ عَلَيْهِمْ بِلادَهُمْ بِغَيْرِ إِذْنِهِمْ، وَأَنْ تَقْطَعَ أَرْحَامَهُمْ، وَأَنْ تُجَرِّيَ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا أَنَا بِفَاعِلٍ حَتَّى أَدْخُلَهَا»...

فَرَجَعَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ لأَبِي سُفْيَانَ وَأَصْحَابِهِ: لا وَاللهِ مَا رَأَيْتُ مِثْلَ محمّد رُدَّ عَمَّا جَاءَ لَهُ[1].

وفي خبر: «فبعثوا عروة بن مسعود الثقفي وكان عاقلاً لبيباً...، فلمّا أقبل إلى رسول الله ﷺ عظّم ذلك وقال: يا محمّد! تركتُ قومَك وقد ضربوا الأبنية، وأخرجوا العوذ المطافيل، يحلفون باللاّت والعزّى لا يدعوك تدخل حرمهم وفيهم عينٌ تطرف، أفتريد أن تُبير أهلك وقومك يا محمّد؟! فقال رسول الله ﷺ: ما جئت لحرب وإنّما جئت لأقضيَ نسكي، فأنحر بُدني وأخلّي بينكم وبين لحماتها، فقال عروة: بالله ما رأيت كاليوم أحداً صدّ عمّا صُددت.

(١) الكافي: ج ٨ ص ٢٦٧ ح ٥٠٣؛ تفسير القمّي: ج ٢ ص ٣١١.

فرجع إلى قريش وأخبرهم، فقالت قريش: والله لئن دخل محمّد مكة وتسامعت به العرب لنذلنّ ولتجترأنّ علينا العرب، فبعثوا حفص بن الأحنف وسهيل بن عمرو، فلمّا نظر إليهما رسول الله ﷺ قال: «ويح قريش! قد نهكتهم الحرب، ألا خلّوا بيني وبين العرب؟ فإن أكُ صادقاً فإنّما أجرّ الملك إليهم مع النبوّة، وإن أكُ كاذباً كفتهم ذؤبان العرب، لا يسأل اليوم امرؤٌ من قريش خطة ليس لله فيها سخط، إلا أجبتهم إليه».

فوافوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمّد! إلى أن ننظر إلى ماذا يصير أمرك وأمر العرب على أن ترجع من عامك هذا، فإنّ العرب قد تسامعت بمسيرك فإن دخلتَ بلادنا وحرمنا، استذلّتنا العرب واجترأت علينا ونخلّي لك البيت في القابل في هذا الشهر ثلاثة أيام، حتى تقضيَ نسكك وتنصرف عنّا، فأجابهم رسول الله ﷺ إلى ذلك، وقالوا له: وتردّ إلينا كلَّ مَن جاءك من رجالنا، ونردّ إليك كلّ مَن جاءنا من رجالك. فقال رسول الله ﷺ: مَنْ جاءكم من رجالنا فلا حاجة لنا فيه، ولكن على أنَّ المسلمين بمكّة لا يُؤذَون في إظهارهم الإسلام ولا يُكرهون ولا يُنْكر عليهم شيء يفعلونه من شرائع الإسلام، فقبلوا ذلك.

فلمّا أجابهم رسول الله ﷺ إلى الصلح أنكر عليه عامةُ أصحابه وأشدّ ما كان إنكاراً عمر، فقال: يا رسول الله! ألسنا على الحقّ وعدوّنا على الباطل؟! فقال: نعم، قال: فنعطي الدنيّة في ديننا؟ فقال: إنّ الله قد وعدني ولن يخلفني قال: لو أنّ معي أربعين رجلاً لخالفته.

ورجع سهيل بن عمرو وحفص بن الأحنف إلى قريش فأخبراهم بالصلح، فقال عمر: يا رسول الله! ألم تقل لنا أن ندخل المسجد الحرام ونحلق مع المحلّقين؟ فقال: «أمن عامنا هذا وعدتك؟ وقلت لك: إنّ الله عزّ وجلّ قد وعدني أن أفتح مكة وأطوف وأسعى وأحلق مع المحلّقين»...

ورجع حفص بن الأحنف وسهيل بن عمرو إلى رسول الله ﷺ فقالا: يا محمّد! قد أجابت قريش إلى ما اشترطت من إظهار الإسلام وأن لا يُكره أحدٌ على دينه، فدعا رسول الله ﷺ بالمكتب ودعا أمير المؤمنين عليه السلام، فقال له: اكتب، فكتب أمير المؤمنين عليه السلام: «**بسم الله الرحمن الرحيم**»، قال سهيل بن عمرو: لا نعرف الرحمن اكتب كما كان يكتب آباؤك «**باسمك اللهم**»، فقال رسول الله ﷺ: «**اكتب باسمك اللهم، فإنّه اسم من أسماء الله**».

ثم كتب: «**هذا ما تقاضى عليه محمّد رسول الله والملأ من قريش**» فقال سهيل بن عمرو: لو علمنا أنّك رسول الله ﷺ ما حاربناك، اكتب هذا ما تقاضى عليه محمّد بن عبد الله، أتأنف من نسبك يا محمّد؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أنا رسول الله وإن لم تقرّوا**»، ثمّ قال: **امحُ يا علي، واكتب محمّد بن عبد الله**، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: ما أمحو اسمك من النبوّة أبداً، فمحاه رسول الله ﷺ بيده ثمّ كتب:

«**هذا ما تقاضى عليه محمّد بن عبد الله والملأ من قريش وسهيل بن عمرو، اصطلحوا على وضع الحرب بينهم عشر سنين، على أن يكفّ بعضنا عن بعض وعلى أنّه لا إسلال ولا إغلال، وأنّ بيننا وبينهم غيبة مكفوفة، وأنّه مَنْ أحبّ أن يدخل في عهد محمّد وعقده فعل، وأنّه مَن أحبّ أن يدخل في عقد قريش وعقدها فعل، وأنّه مَن أتى محمّداً بغير إذن وليّه يردّه إليه، وأنّه مَن أتى قريشاً من أصحاب محمّد لم يردّوه إليه، وأن يكون الإسلام ظاهراً بمكّة لا يُكره أحدٌ على دينه ولا يُؤذى ولا يعيّر، وأنّ محمّداً يرجع عنهم عامه هذا وأصحابه ثمّ يدخل علينا في العام القابل مكة، فيقيم فيها ثلاثة أيام، ولا يدخل علينا بسلاح إلا سلاح المسافر، السيوف في القِرَب**» وكتب عليُّ بنُ أبي طالب وشهد على الكتاب المهاجرون والأنصار[١].

---

(١) تفسير القمي: ج ٢ ص ٣٠٩ وما بعدها، وانظر: الكافي: ج ٨ ص ٣٢٢ـ٣٢٧ ح ٥٠٣، وتاريخ الأمم والملوك: ج ٢ ص ٢٨١ـ٢٨٢.

نص معاهدة الصلح

دعا رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فأخذ أديماً أحمر فوضعه على فَخذه[1].

وفي خبر الكليني ـ بسند حسن ـ عن الصادق عليه السلام قال:... فَقَالَ ﷺ لِعَلِيٍّ عليه السلام: «اكْتُبْ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ».

فَقَالَ سُهَيْلٌ: مَا أَدْرِي مَا الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، إِلا أَنِّي أَظُنُّ هَذَا الَّذِي بِالْيَمَامَةِ، وَلَكِنِ اكْتُبْ كَمَا نَكْتُبُ: «بِاسْمِكَ اللهُمَّ».

قَالَ ﷺ: «وَاكْتُبْ: هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو».

فَقَالَ سُهَيْلٌ: فَعَلَى مَا نُقَاتِلُكَ يَا محمّد؟!

فَقَالَ: «أَنَا رَسُولُ اللهِ، وَأَنَا محمّد بْنُ عَبْدِ اللهِ».

فَقَالَ النَّاسُ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ.

قَالَ ﷺ: «اكْتُبْ: هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ محمّد بْنُ عَبْدِ اللهِ».

فَقَالَ النَّاسُ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ.

وَكَانَ فِي الْقَضِيَّةِ: «أَنَّ مَنْ كَانَ مِنَّا أَتَى إِلَيْكُمْ رَدَدْتُمُوهُ إِلَيْنَا، وَمَنْ جَاءَ إِلَيْنَا مِنْكُمْ لَمْ نَرُدَّهُ إِلَيْكُمْ».

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لا حَاجَةَ لَنَا فِيهِمْ».

«وَعَلَى أَنْ يُعْبَدَ اللهُ فِيكُمْ عَلانِيَةً غَيْرَ سِرٍّ»[2].

وفي نص السيرة الحلبية: «عَلَى أَنْ تُوضَعَ الْحَرْبُ بَيْنَهُمَا عَشْرَ سِنِينَ وَأَنْ

(١) إعلام الورى بأعلام الهدى: ج ١ ص ٢٠٤.
(٢) الكافي: ج ٨ ص ٢٦٧.

يَأْمَنَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، وَأَنْ يَرْجِعَ عَنْهُمْ عَامَهُمْ هَذَا. عَلَى أَنَّهُ مَنْ أَتَى محمّداً مِنْ قُرَيْشٍ بِغَيْرِ إِذْنِ وَلِيِّهِ رَدَّهُ عَلَيْهِمْ، وَمَنْ جَاءَ قُرَيْشاً مِمَّنْ يَتَّبِعُ محمّداً لَمْ يَرُدُّوهُ عَلَيْهِ»(١).

اعتراض بعض الصحابة:

قال القمي: فلمّا أجابهم رسول الله إلى الصلح أنكر ذلك عامة الصحابة،... ولما أكثروا عليه قال لهم رسول الله ﷺ: «ألستم أصحابي يوم بدر إذ أنزل الله فيكم: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ [الأنفال: ٩]. ألستم أصحابي يوم أُحد: ﴿۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ۗ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [آل عمران: ١٥٣]. ألستم أصحابي يوم كذا؟ ألستم أصحابي يوم كذا ؟

ثمّ قال لهم: «إِنِّي رَسُولُ اللهِ وَلَسْتُ أَعْصِيهِ وَهُوَ نَاصِرِي».

فاعتذروا إلى رسول الله وندموا على ما كان منهم، وقالوا: الله أعلم ورسوله، فاصنع ما بدا لك(٢).

بنود الصلح

للصلح معانٍ كثيرة، ومفهوم الصلح هنا هو إنهاء حالة الحرب.

وفي تلك السنوات العشر على الطرفين أن يلتزما بأمور، وهي:

١ ـ أن يكفّ بعض عن بعض.

---

(١) السيرة الحلبية: ج ٢ ص ٧٧٩.
(٢) تفسير القمّي: ج ٢ ص ٣١٢.

٢ ـ وعلى أنّه لا إسلال ولا إغلال (غش).

٣ ـ وأنّ بيننا وبينهم غيبة مكفوفة.

٤ ـ وأنّه مَن أحبَّ أن يدخل في عهد محمّد وعقده فعل.

٥ ـ وأنّ مَن أحبَّ أن يدخل في عهد قريش وعقدها فعل.

٦ ـ وأنّه مَنْ أتى من قريش إلى أصحاب محمّد بغير إذن وليه يردّوه إليه.

٧ ـ وأنّه من أتى قريشاً من أصحاب محمّد لم يردّوه إليه.

٨ ـ وأن يكون الإسلام ظاهراً بمكّة، لا يُكَره أحد على دينه ولا يُؤذى ولا يُعيّر.

٩ ـ وأنّ محمّداً يرجع عنهم عامه هذا وأصحابه، ثمّ يدخل في العام القابل مكة فيقيم فيها ثلاثة أيام، ولا يدخل عليها بسلاحٍ إلا سلاح المسافر: السيوف في القراب.

وشهد على الكتاب المهاجرون والأنصار. وكتب عليٌّ بن أبي طالب.

وكتبوا نسختين، نسخة عند رسول الله ﷺ، ونسخة عند سهيل بن عمرو.

فقه الصلح في الإسلام

لا نستطيع أن نفهم فقه الصلح إلا إذا رجعنا إلى «فقه العنف» في الإسلام، وفيه نلاحظ أمرين:

أولاً: إنّ العنوان الكبير الذي يوضع في واجهة «فقه العنف»، هو ما يُسمّى بعنوان «الجهاد» و»القتال».

ثانياً: إذا أردنا أن ننفذ إلى داخل عنوان «القتال»، فإنّنا نجد أنّ هناك آيات تحدّد طريقة القتال:

١ ـ ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البقرة: ١٩٠]وهي مسألة دفاع عن النفس، أو عن المجتمع المستهدف.

٢ ـ ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ ﴿٧٥﴾﴾ [النساء: ٧٥] وهذا القتال من أجل الفئات المحرومة أو المضطهدة.

٣ ـ ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنفال: ٣٩]، وبحسب المصطلح الحديث: قتال في سبيل الحرية حتى لا يتحرّك هؤلاء ليفتنوهم عن دينهم بالضغط والإكراه وبالقتل ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ حتى يأخذ الإسلام حريته.

إذاً ليس هناك في النصّ القرآني قتال بمعنى الهجوم.

٤ ـ ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنفال: ٥٨]، وهذا قتال وقائي؛ عندما تجد أنّ هناك معطيات بأنّ قوماً سوف يهجمون عليك.

٥ ـ ﴿۞وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ ﴿٦١﴾﴾ [الأنفال: ٦١].

٦ ـ حتى عندما تريد أن ترد العدوان فعليك أن تردّه بمثله: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل: ١٢٦].

فلماذا عاهد الرسول ﷺ مشركي قريش؟

إنّ ظهور الإسلام، وتكوين القاعدة الإسلامية بالمدينة المنوّرة، أثار موجة عارمة من الصراع بين الإسلام والوثنية، بلغ أشدّه في غزوة الأحزاب التي كانت تمثّل تهديداً مباشراً للكيان السياسي الإسلامي.

ووجد النبيّ ﷺ نفسه أمام ثلاث جبهات:

الأولى: الجبهة الشمالية: وتتمثّل في خيبر، وفدك وتيماء، ووادي القرى، ويتزعّمها اليهود. وتشكّل هذه الجبهة قاعدة للتحريض، ومركزاً للتمويل بالسلاح والمال.

الثانية: الجبهة الشرقية: وتتمثّل في القبائل العربية من نجد، وأبرزها غطفان، وبنو أسد، وبنو مرة، وغيرها. وهي عبارة عن قوّة من المرتزقة، يغريها اليهود بالمال وبخيرات خيبر.

الثالثة: الجبهة الجنوبية: وتتزعّمها قريش، تدفعها الأحقاد، والمصلحة الاقتصادية، والقيمة الاعتبارية بين القبائل.

ولقد كانت غايات النبيّ ﷺ من معاهدة الحديبيّة الآتي:

أولاً: ممارسة الحقّ في أداء الشعائر بمكّة.

ثانياً: توفير الأمن للمدينة المنوّرة من التهديد المستمرّ، وذلك بتحييد الجبهة الجنوبية، حتى الانتهاء من تصفية الجبهة الشمالية، لهذا كانت الحديبية معاهدة مؤقّتة.

ثالثاً: إطلاق الحرية للدعوة الإسلامية.

وأمّا قريش فكانت أهدافها تنصبّ في الحميّة الجاهلية وهي: المحافظة على التجارة، والمكانة الاعتبارية بين القبائل.

وكانت قريش تظنّ أنّها حقّقت ما تريد من شروط، لهذا كان المسلمون قلقين من بعض أحكام المعاهدة، مشفقين على مستقبل الدعوة الإسلامية لكنّ الرسول ﷺ كان يوصيهم بالصبر والأناة، ويبشّرهم بالفتح والغنائم، لأنّه كان يدرك أبعاد المعاهدة.

نعم، لقد فُوجئت قريش بأنّ شروطها التي أصرّت عليها تفتقر إلى العمق، نحفها في استرداد اللاجئين من صفوف المسلمين، أصبح وبالاً عليها، لأنّهم نسلّلوا إلى الساحل فقطعوا طريق القوافل، ممّا حدا بقريش أن تناشد النبيّ ﷺ الله والرحم في إسقاط الشرط، واحتواء الذين هدّدوا طريق القوافل، حتى يكونوا تحت مظلّة المعاهدة، واستجاب ﷺ لذلك.

إنّ تنازل قريش عن شرط استعادة اللاجئين، فتح الطريق أمام الذين قذف الله الإيمان في قلوبهم أن يلتحقوا بقافلة الإيمان، فكان بداية لتصدُّع الموقف القرشي.

من هنا نقول: إنّ إبرام معاهدة الحديبيّة، يُعتبر نقطة تحوّل في التاريخ الإسلامي، إذ مكّن الدولة الإسلامية من مباشرة نشاطها في المجتمع الدولي، وخاصة من خلال إرسال الرسل والكتب إلى ملوك وأمراء الممالك والقبائل، كما كان إبرام معاهدة الحديبية اعترافاً ضمنياً بكيانها السياسي.

ولو استقصيتَ عَدَدَ مَن دخل الإسلام في سنتي الهدنة لرأيتهم يعدلون من أسلم منذ البعثة النبوية عدداً. وفي ذلك يقول الزهري: «فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم من فتح الحديبية، إنّما كان القتال حيث التقى الناس، ولما كانت الهدنة، ووضعت الحرب، وأمن الناس، كلّم بعضهم بعضاً، والتقوا وتفاوضوا في الحديث والمنازعة، ولم يكلّم أحد بالإسلام يعقل شيئاً في تلك المدّة إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك»[1].

وعلّق ابن هشام على هذا قائلاً: «والدليل على قول الزهري إنّ رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة في قول جابر بن عبد الله، ثمّ خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف»[2].

---

(١) فتح الباري: ج ٥ ص ٣٤٨؛ السيرة النبوية: ج ٤ ص ٢٩١؛ تاريخ الطبري: ج ٢ ص ١٢٤؛ البداية والنهاية: ج ٤ ص ١٧٠.

(٢) السيرة النبوية: ج ٤ ص ٢٩١.

لقد علّمنا رسول الله ﷺ في هذا الصلح حسن التفاوض والتفكير المستقبلي في جميع أمورنا، فقد كانت القوى التي تحارب الإسلام حينذاك ثلاثاً: اليهود، وقريش، وغطفان، فلما صالح النبيّ ﷺ قريشاً في صلح الحديبية فكَّ الحصار الجنوبي عن المدينة، حيث اتفق المشركون في الجنوب واليهود في الشمال في حصن خيبر على سحق المدينة المنوّرة بالزحف عليها من كلِّ جهة، فكان صلح الحديبية خطوة لتنحية المشركين وإبطال اتفاقهم مع اليهود، ثمّ جاء فتح خيبر ليفكَّ الحصار عن شمال المدينة، فتفرّغ ﷺ للدعوة عموماً، ودخل الناس في دين الله أفواجاً.

كما أنّ رسول الله ﷺ قد تأكّد أنّ قريشاً لا تعرف للسلم قيمة، وغلب على أهلها الحقد على الإسلام ودولته، وصارت مكة بما فيها غير مأمونة الجانب على دولة الإسلام، فجهّز رسول الله ﷺ لفتح مكة، والذي جاء بعد نقض قريش لعهدها مع رسول الله ﷺ، لتظهر النظرة الثاقبة لرسول الله ﷺ في الصبر على الأعداء، وتحمل ما يبدو ظلماً وجوراً للوصول إلى الهدف الأسمى من تبليغ دعوة الإسلام للعالمين دون عراقيل، وتحقيق التعايش السلمي مع الآخر داخل المدينة وخارجها.

وممّا سبق نتعلّم كيفية التعامل مع الأحداث وترك التسرّع في الحكم على الأمور، لئلا ننزلق في مهاوي الفتنة، فتؤدّي بنا إلى ما لا تُحمد عقباه، في حين أنّه يمكننا التغلّب على ما يعتري المجتمع من مشكلات وأزمات بدراستها والوقوف على أسبابها، والصبر على غصص معالجتها، والنظر إلى مآلاتها وهذا أحرى بأن نتغاضى عن صغائر الأمور وما يتبع ذلك من محاولات لإثارة الفتنة وإشاعة البلبلة في المجتمعات الآمنة، خاصة في أوقات ضعف الأمة وكثرة المتربِّصين بها.

تعامل الرسول مع أهل الكتاب
خارج المدينة

بعد أن عقد الرسول الكريم ﷺ صلح الحديبية مع قريش؛ ليأمن بذلك جانب الجهة الجنوبية من المدينة، وتكون الدعوة الإسلامية في حرية تامة، عَمَدَ ﷺ إلى تأمين الجهة الشمالية للمدينة فعقد معاهدات مع غير المسلمين خارج حدود دولة المدينة، فعقد اتفاقات سلمية مع يهود فدك وأيلة وتيماء، ومع بني صخر من كنانة. وعقد ـ أيضاً ـ اتفاقية سلمية مع نصارى نجران في العام العاشر من الهجرة.

وعن وفد نجران، تُحدِّثنا السيرة النبوية أنّ رسول الله ﷺ قد صالحهم، وأقامهم في شطر مسجده يؤدّون شعائر دينهم، وكتب لهم عهداً جاء فيه: «**وَلِنَجْرَانَ وَحَاشِيَتِهِمْ جِوَارُ اللهِ وَذِمَّةُ محمّد النَّبِيِّ، رَسُولِ اللهِ، عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَمِلَّتِهِمْ وَأَرْضِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَغَائِبِهِمْ وَشَاهِدِهِمْ وَبِيَعِهِمْ، لاَ يُغَيَّرُ أُسْقُفٌ عَنْ سِقِّيفَاهُ، وَلاَ رَاهِبٌ عَنْ رَهْبَانِيَّتِهِ، وَلاَ وَاقِفٌ عَنْ وَقْفَانِيَّتِهِ**».

وكذلك نصَّ ﷺ في معاهدته معهم: «**أَنَّ لَهُمْ مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ، مِنْ قَلِيلٍ وَكَثِيرٍ؛ مِنْ بِيَعِهِمْ وَصَلَوَاتِهِمْ وَرَهْبَانِيَّتِهِمْ، لاَ يُحْشَرُونَ وَلاَ يُعْشَرُونَ وَلاَ يَطَأُ أَرْضَهُمْ جَيْشٌ، وَلاَ يُغَيَّرُ حَقٌّ مِنْ حُقُوقِهِمْ وَلاَ سُلْطَانِهِمْ وَلاَ شَيْءٌ مِمَّا كَانُوا عَلَيْهِ مَا نَصَحُوا وَأَصْلَحُوا فِيمَا عَلَيْهِمْ غَيْرَ مُثْقَلِينَ بِظُلْمٍ وَلاَ ظَالِمِينَ**»(١).

(١) الطبقات الكبرى: ج ١ ص ٢٨٨.

والمعروف أنّ هذا الوفد قد جاء لمناظرة ومجادلة الرسول ﷺ، ولم يكن من همّه أن يسلم أو يفكّر في الإسلام، فعمد النبيّ ﷺ إلى طريقة أخرى في المعاملة والحوار بصورة تختلف عمّا فعله مع الوفود الأخرى.

في البداية حين دخلوا عليه وسلّموا عليه، لم يردّ عليهم السلام ولم يكلّمهم، ونصحهم الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام بأن يضعوا حللهم وخواتيمهم ثمّ يعودوا إليه، ففعلوا ذلك فسلّموا فردَّ عليهم سلامهم[1].

ولما أرادوا أن يصلّوا بالمسجد عندما حان وقت صلاتهم، همَّ بعض المسلمين بمنعهم فقال ﷺ: «دعوهم» فاستقبلوا المشرق وصلّوا صلاتهم[2].

ولقد سلك رسول الله ﷺ في محاورته مع وفد نجران طريقاً آخر يذكّرهم فيه بالقاسم المشترك بين الأديان، وهو أن يكون التوجّه والمرجعية لله وحده ليفصل بين المختلفين من أتباع الديانات، خاصة في مسائل أصول الاعتقاد، وذلك تنفيذاً لأمر الله سبحانه وتعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ [آل عمران: ٦١].

فالرسول الكريم ﷺ أكّد مع نصارى نجران على خطّين من خطوط التواصل:

أحدهما: أن تقبل الآخر: وهو التواصل من خلال مفتاح القلب، وكأنّ الوصول إلى العقل تمّ من خلال القلب، وكأنّ الوصول إلى العقل تمّ من خلال الجسد. فالخطوة تحدِّد عليّ أن أقبلك كما أنت.

وثانيهما: أن تبحث عمّا يمكن أن يكون بينك وبينه من أرضية مشتركة، فإنّ أكبر خطأ في عملية التواصل أن تبحث عن الفروقات في البداية أو تبحث على

(١) دلائل النبوة، البيهقي: ج ٥ ص ٣٧٨.
(٢) زاد المعاد: ج ٣ ص ٥٥٧.

نقاط الاختلاف، فإنّك إذا بحثت عن نقاط الاختلاف فتأكّد تماماً أنّك ستنفر منّي[1].

لقد جاءت هذه المباهلة بعد تأكيد دعائم الدولة الإسلامية، حيث أرسل الرسول ﷺ إلى عدد من الملوك والزعماء والقادة الدينيّين يدعوهم إلى الإسلام، وفي هذا الإطار بعث ﷺ برسالة إلى أساقفة نجران جاء فيها: «**أما بعد فإنّي أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد، أدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد**»[2].

ولمّا قرأ الأسقف الأكبر الرسالة، بعث إلى رجل من نجران اسمه شرحبيل بن وداعة وكان لبيباً، فدفع إليه الكتاب فقرأه فقال: «قد علمت وعد إبراهيم في ذرّية إسماعيل من النبّوة، فما يؤمنك أن يكون هذا؟ فأرى أن ترسل وفداً للتحدّث مع هذا الرجل والحوار معه».

فاتفق الرأي على إرسال وفد قوامه ثلاثون رجلاً من بينهم شرحبيل.

فانطلق القوم حتى أتوا رسول الله ﷺ فدار معه حوار طويل، ولم ينتهِ الحوار بين رسول الله ووفد نجران إلى نتيجة، فنزل القرآن على رسول الله ﷺ موجّهاً لطريقة حسم الحوار: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ [آل عمران: ٦٠ ـ ٦١]. فكانت الدعوة إلى المباهلة مع نصارى نجران.

---

(١) وتكرر منه ﷺ ذلك حينما دخل عليه عدي بن حاتم الطائي، وفي عنقه صليب من الذهب، وكان النبيّ ﷺ يجلس على وسادة من أدم، فقام ﷺ من على الوسادة وقدّمها له.. يقول عدي: فجلست عليها وجلس رسول الله ﷺ بالأرض. فقال: «**يا عدي أخبرك ألا إله إلا الله، فهل من إله إلا الله؟ وأخبرك أنّ الله تعالى أكبر، فهل من شيء هو أكبر من الله عزّ وجلّ؟...**»، سبل الهدى والرشاد: ج ٦ ص ٣٧٧.

(٢) دلائل النبوة: ج ٥ ص ٣٨٥؛ زاد المعاد: ج ٣ ص ٦٣١.

وتعني (المباهلة) أن يجتمع المتجادلون في أمر ديني في مكان ما، عادةً ما يكون مفتوحاً على السماء أي غير مسقوف، أو في رحاب الصحراء ويتضرَّعون إلى الله أن يُظهر الحقّ، ويطرد من رحمته مَن لا يعرفه ولا يعبر عنه...

فواعدوه على الغد، فلمّا أصبح أقبل ومعه الحسن والحسين وفاطمة وعليّ (عليهم السلام)، وقال: **اللهم هؤلاء أهلي**، ولما رأى وفد نجران أنّ الأمر جدّ لا هزل فيه، وأنّ الرسول ﷺ ماضٍ فيما اتفق معهم عليه من أمر الملاعنة وتقديم حقّ الله على النفس والولد ـ راجعوا أنفسهم وتشاوروا، فقال لهم أسقفهم: إنّي لأرى وجوهاً لو سألوا الله أن يزيل لهم جبلاً لأزاله، فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض منكم أحد. فقالوا: لا نباهلك[1].

وفي خبر آخر:

«ثُمَّ إنّهم أَصَرُّوا عَلَى جَهْلِهِمْ. قَالَ ﷺ: **إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي إِنْ لَمْ تَقْبَلُوا الْحُجَّةَ أَنْ أُبَاهِلَكُمْ**، فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ بَلْ نَرْجِعُ فَنَنْظُرُ فِي أَمْرِنَا ثُمَّ نَأْتِيكَ، فَلَمَّا رَجَعُوا قَالُوا لِلْعَاقِبِ ـ وَكَانَ ذَا رَأْيِهِمْ ـ: يَا عَبْدَ الْمَسِيحِ مَا تَرَى؟! قَالَ: وَاللهِ لَقَدْ عَرَفْتُمْ يَا مَعْشَرَ النَّصَارَى أَنَّ محمّداً نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَلَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْكَلامِ الْفَصْلِ مِنْ أَمْرِ صَاحِبِكُمْ، وَاللهِ مَا بَاهَلَ قَومٌ نَبِيّاً قَطّ فَعَاشَ كَبِيرُهُمْ، وَلا نَبَتَ صَغِيرُهُمْ، وَلَئِنْ فَعَلْتُمْ لَكَانَ الاسْتِئْصَالَ، فَإِنْ أَبَيْتُمْ إلا الإصْرَارَ عَلَى دِينِكُمْ وَالإِقَامَةَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ فَوَاعِدُوا الرَّجُلَ وَانْصَرِفُوا إِلَى بِلادِكُمْ، فَأَتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ وَقَدْ خَرَجَ وَعَلَيْهِ ﷺ مِرْطٌ مِنْ شَعْرٍ أَسْوَدَ، وَكَانَ ﷺ قَدِ احْتَضَنَ الْحُسَيْنَ، وَأَخَذَ بِيَدِ الْحَسَنِ، وَفَاطِمَةَ تَمْشِي خَلْفَهُ ﷺ، وَعَلِيٌّ عليه السلام خَلْفَهَا وَهُوَ يَقُولُ: **إِذَا دَعَوْتُ فَأَمِّنُوا**. فَقَالَ أُسْقُفُ نَجْرَانَ: يَا مَعْشَرَ النَّصَارَى إِنِّي لأرَى وُجُوهًا لَوْ دَعَتِ اللهَ أَنْ يُزِيلَ جَبَلاً مِنْ مَكَانِهِ لأزَالَهُ بِهَا، فَلا تُبَاهِلُوا فَتَهْلَكُوا وَلا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ نَصْرَانِيٌّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. ثُمَّ

(١) صحيح البخاري: ج ٥ ص ١٧١.

قَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِم، رَأَيْنَا أَنْ لا نُبَاهِلَكَ، وَأَنْ نُقِرَّكَ عَلَى دِينِكَ، فَقَالَ ﷺ: **فَإِذَا أَبَيْتُم الْمُبَاهَلَةَ فَأَسْلِمُوا يَكُنْ لَكُمْ مَا لِلْمُسْلِمِينَ وَعَلَيْكُمْ مَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ**. فَأَبَوْا. فَقَالَ ﷺ: **فَإِنِّي أُنَاجِزُكُمْ** ـ أَيْ أُحَارِبُكُمْ ـ فَقَالُوا: مَا لَنَا بِحَرْبِ الْعَرَبِ الْمُسْلِمِينَ طَاقَةٌ، وَلَكِنْ نُصَالِحُكَ أَنْ لا تَغْزُونَا وَلا تَرُدَّنَا عَنْ دِينِنَا عَلَى أَنْ نُؤَدِّيَ إِلَيْكَ كُلَّ عَامٍ أَلْفَي حُلَّةٍ: أَلْفًا فِي صَفَرَ، وَأَلْفًا فِي رَجَبَ، وَثَلاثِينَ دِرْعاً عَادِيَةً مِنْ حَدِيدٍ، فَصَالَحَهُمْ عَلَى ذَلِكَ...»[1].

تأمّلات في حدث المباهلة:

لا تُعتبر المباهلة حدثاً عادياً ويُراد من خلالها تحقيق أمور عديدة:

١ ـ حسم الحوار، الذي قد لا يصل إلى نتيجة، بحيث لا ينعكس الخلاف سلباً على أرض الواقع فيؤدّي إلى التشنّج والعصبيّات والحساسيّات أو حتى إلى التقاتل، فيُترك الأمر إلى الله سبحانه، ليصدر حكمه الواضح في الدنيا، كما يحكم تعالى في الآخرة، بما يساهم في إزالة كلّ النوازع الذاتية ما دام الأمر يتعلّق بالجانب الديني، حيث يعمل الطرفان على وصول الحوار إلى نتيجة متّفق عليها وعندما لا يتمّ ذلك، فإنّهما يتركان الأمر لله سبحانه لأنّه الحكم ولأنّه المنطلق والهدف.

٢ ـ كان الحرص في إعلان المباهلة على أن يتمّ في ظلّ اجتماع الطرفين، لإزالة التوتّر بين المتحاورين وبين مجتمعاتهم أيضاً.. بحيث تزول من خلال ذلك كلّ الرواسب التي قد تحدث في داخل المجتمع المتنوّع.

٣ ـ عندما تُقام المباهلة، فإنّ الدعاء لله يحصل من الجميع بصوتٍ واحد وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾،

(١) تحفة الأحوذي بشرح سنن الترمذي: الحديث ٢٩٩٨. قال: هذا حديث حسن غريب صحيح، وأخرجه مسلم مطولاً، وكذا أخرجه الترمذي مطولاً في مناقب علي.

بحيث يدعو الجميع أن يُخرج الله من رحمته كلّ مخالفٍ للحقيقة، عسى أن يفتح ذلك فرصة الخير في قلوب المعاندين، للإذعان إلى الحقيقة بعد رفضها.

حيث إنّ الجوّ المهيب الذي يحصل من خلال هذا الاجتماع، يفرض على الكاذب أن يفكّر مليّاً بما هو مقبلٌ عليه.

وإنّنا بحاجة إلى تأكيد المباهلة كعنصر إيجابي يساهم في إزالة النزاع من النفوس، وتفريغ السلبيات المكنونة فيها لتوضع عند الله عزّ وجلّ، فيحكم بين عباده وهو خير الحاكمين.

٤ ـ التركيز على أسلوب القرآن، فعندما تكون هناك مشكلة بينك وبين شخص آخر، فعليك في طريقة التعبير أن تساوي نفسك بالآخر، فعندما تتحدّث ـ مثلاً ـ مع شخص يشكّ وأنت على يقين، ففي مجال الحوار ولأجل إيصاله إلى الحقيقة، حاول أن تُظهر نفسك بمظهر الشاكّ، أو إذا كانت هناك مباهلة فإنَّك في العادة تقول للطرف الآخر إذا كنت كاذباً فسيلعنك الله، في حين أنّ أسلوب القرآن يعلّمك أن تقول: سيلعن الله الكاذب منّا حتى لو كنت صادقاً.

ففي تفسير العياشي بإسناده عن محمّد بن سعيد الأزدي، أنّ موسى بن محمّد بن الرضا عليه السلام أخبره أن يحيى بن أكثم كتب إليه يسأله عن مسائل: أخبرني عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ﴿٩٤﴾﴾ [يونس: ٩٤]، مَن المخاطب بالآية؟ فإن كان المخاطب فيها النبيّ صلى الله عليه وآله، أليس قد شك في ما أنزل الله؟ وإن كان المخاطب به غيره فعلى غيره إذاً أنزل الكتاب؟!

قال موسى: فسألت أخي [أي الهادي عليه السلام] عن ذلك، قال: «فأما قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ فإنَّ المخاطب بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله، ولم يكُ في شك ممّا أنزل الله، ولكن قالت

الجهلة: كيف لم يبعث إلينا نبيّاً من الملائكة، إنّه لم يفرّق بينه وبين نبيّه في الاستغناء في المأكل والمشرب والمشي في الأسواق.

فأوحى الله إلى نبيّه: ﴿فَسْئَلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ بمحضر الجهلة: هل بعث الله رسولاً قبلك إلاّ وهو يأكل الطعام ويشرب ويمشي في الأسواق، ولك بهم أسوة، وإنّما قال: فإن كنت في شك ولم يكن ـ أي لم يكن في شك ـ ولكن ليتبعهم كما قال: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ [آل عمران: ٦١]».

فكأنّه يفرض النبيّ شاكّاً ـ وهو ليس بشاكٍّ ـ ويقول له كما هم شاكّون افترض أنّك في موضع الشك، وذلك من أجل أن تجتذب هؤلاء لتحتجَّ عليهم بذلك، فالمباهلة تقتضي أن يفقد كلُّ طرف صفته التي تميَّز بها.

ثم يقول الإمام الهادي عليه السلام: «ولو قال: تعالوا نبتهل فنجعل لعنة الله عليكم، لم يكونوا يجيئون للمباهلة، وقد عرف أنّ نبيّكم مؤدّ عنه رسالته، وما هو من الكاذبين، وكذلك عرف النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه صادق في ما يقول، ولكن أحبّ أن ينصف من نفسه»(١).

فالذي يستفيده الإمام الهادي عليه السلام من القرآن هو الأسلوب العلمي الذي يجعل الإنسان الذي يحاورك يقف معك بكلّ قلب مفتوح، لأنك ساويت نفسك به وأعطيته النَصف من نفسك، وهذا تطبيق للآية الكريمة التي تقول: ﴿ ۞ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [سبأ: ٢٤].

هكذا كانت حكمة الرسول في التعامل مع الآخر، كلٌّ بحسب طريقة تفكيره وتوجهاته العقدية، في إطار من قول الله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل: ١٢٥].

---

(١) تفسير العياشي: ج ٣ ص ١٢٨ ح ٤٢.

وبهذا تقع الحُجّة من عقل الآخر كما تقع من قلبه، فدولة الإسلام علاقتها بدول الجوار علاقة سلم واحترام وحسن تعامل، وهذا ما بدا في كتابه ﷺ لملك اليمن حيث قال له: «وأَنَّهُ منْ أَسْلَمَ منْ يهُودِيٍّ أَوْ نصْرَانِيٍّ إِسْلاماً خالِصاً منْ نفْسِهِ ودَانَ بدِينِ الإِسْلام، فإِنَّهُ منَ الْمؤْمِنِينَ، لهُ مثْلُ الّذِي لهُمْ، وعَلَيْهِ مِثْلُ الّذِي علَيْهِمْ، ومَنْ كانَ على نصْرَانِيَّةٍ أَوْ يهُودِيَّةٍ فإِنَّهُ لاَ يُفْتنُ عنْهَا، وعَلى كلّ حالِم، ذكَراً أوْ أنْثى، حرّاً أوْ عبْداً، دِينارٌ وافٍ أوْ عِرْضُهُ ثياباً، فمَن أدّى ذلِكَ، فلَهُ ذِمّةُ اللهِ وذِمَّةُ رسُولِهِ، ومَنْ منعَهُ فإِنَّهُ عدُوٌّ اللهِ ورَسُولِهِ والْمُؤْمِنِينَ جمِيعاً»[1].

كلُّ ذلك تحقيقاً للتوجيه الإلهي: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾ [الممتحنة: ٨]، وكذا لقاعدة التسامح وقبول الآخر في قول الله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ ۝٢٥٦﴾ [البقرة: ٢٥٦].

فلا شيء يمثّل السماحة وحرية الفكر مثل الموقف الإسلامي من الآخر؛ فقد نظر القرآن نظرة إلى عناصر الاتفاق التي يغلب أن تكون في كلام الاثنين، فركّز عليها بدلاً من أن يركّز على عناصر الخلاف، وهذا توجيه ثمين في عالم الفكر. ﴿ ۞ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢٤﴾ [سبأ: ٢٤].

على أنّ القرآن لا يكتفي بهذا، فهو يمضي في تطمين صاحبه ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢٥﴾ [سبأ: ٢٥] ولاحظ تعبير ﴿أَجْرَمْنَا﴾ التي يقابلها بالنسبة للآخر ﴿تَعْمَلُونَ﴾ مما ينفي مظنّة أيّ تحامل.

وأخيراً ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ۝٢٦﴾ [سبأ: ٢٦].

إنّ هذه الآيات ـ من سورة سبأ ـ تفتح آفاقاً جديدة وتقدّم أدباً وتهذيباً جديداً،

(١) السيرة النبوية، ابن هشام: ج ٢ ص ٥٨٨.

وماذا علينا لو فتحنا آفاق الاتفاق فنقرّب بعضاً من بعض بدلاً من أن ننبش في نقاط الاختلاف التي تباعد بيننا.

إنّ متناظرَيْن يؤمنان بالآية لا يمكن أبداً أن يختلفا وما يمكن أن يصل إليه الاختلاف من عداوة وبغض، إنّ السلام يسري ما بين المتناظرين بفضل التنازلات التي تتضمّنها، ولا تدع حاجة للخلاف.

فإذا كانت هذه الآيات فتحاً في عالم العلاقة بالآخرين فإنّ من العجيب والمؤسف أنّ آخر الناس استخداماً لها وانتفاعاً منها هم المسلمون الذين نلمس في كثير منهم ضيق الأفق وشدّة التعصّب، إنّهم ـ باختصار ـ يعملون نقيض هذه الآيات وكأنهم من الذين قال عنهم القرآن: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [النساء: ٤٦]، وهي دليل لا يدحض على أنّ القرآن قد يكون في وادٍ ويكون المسلمون في وادٍ آخر.

❀❀❀

تعامل الرسول مع الوفود

لمّا افتتح رسول الله ﷺ مكة، وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف وبايعت، قدمت إليه الوفود من كلّ وجه.

وتميّز تعامل رسول الله ﷺ مع الوفود التي وفدت إليه من غير المسلمين بالحصافة والحكمة والأناة في معاملة الآخرين بأنماطهم المختلفة ومشاربهم المتعدِّدة وعقيدتهم المتباينة فضلاً عن أنّه علّمنا كيفية التعامل مع النفس البشرية مع بُعْد غورها وتعدّد روافدها، معتمداً المنهج الذي أسّسه القرآن الكريم المتمثّل في أهمّية الحوار المتبادل، والمجادلة البناءة، والحكمة الصائبة، والموعظة الحسنة، يقول تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقد وفد العديد من الوفود العربية على النبيّ ﷺ، ومن أهمّ تلك الوفود وفد ثقيف، الذي أنزله رسول الله ﷺ في المسجد وبنى لهم خياماً ليسمعوا القرآن ويروا الناس إذا صلّوا، فيكون أرقّ لقلوبهم وأجدر لبثّ روح الصدق في نفوسهم، وأدعى أن يسألوه عمّا يدور بخَلَدهم.

ومكث الوفد يختلفون إلى رسول الله ﷺ وهو يدعوهم إلى الإسلام فأسلموا، وتكلّموا معه حول الزِّنا والرِّبا والخمر والميسر، فأعلمهم بحرمتها وطالبهم بهدم صنم اللات، كما اشترطوا عليه ألا يُحْشَرُوا ـ أي لا يشتركوا في الجهاد، ولا

يُعْشَرُوا ـ أيّ لا يُؤخذ منهم عشر أموالهم، ولا يُجَبّوْا ـ أي لا يصلّوا، فقال ﷺ: «لكم ألا تُحْشَرُوا ولا تُعْشَرُوا، ولا خَيْرَ فِي دِينٍ لَيْسَ فِيهِ رُكُوعٌ»(١).

إنّ هذا السلوك السلميّ الذي سنّه الرسول ﷺ وما فيه من حسن الوفادة والتلطّف مع وفد ثقيف، قد وصل إلى مبتغاه حين ألّف بين قلوب العرب وعمل على نشر دعوة الإسلام بينهم.

ومن الوفود التي جاءت النبيّ ﷺ وفد بني تميم الذي يُعدّ من أبرز الوفود التي جاءت إلى المدينة، وذلك لمكانتها بين قبائل العرب، وسمْعَتها في مجال الأدب والخطابة والشعر، وكان قدومهم إلى النبيّ ﷺ بسبب سرية عيينة بن حصن، فقد أَسَرَ منهم أَحَدَ عَشَرَ رجلاً وإحدى عَشْرَةَ امرأة، فقدم رؤساؤهم وأشرافهم ليشفعوا في هؤلاء الأسرى(٢).

فلما دخل وفد بني تميم المسجد نادَوا رسول الله ﷺ من وراء حجراته أن اخرج إلينا يا محمّد، فآذى ذلك رسول الله ﷺ من صياحهم فخرج إليهم، وفي ذلك نزل قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الحجرات: ٤]، وقالوا له: نحن ناس من تميم، جئناك بشاعرنا وخطيبنا لنشاعرك ولنفاخرك، فقال رسول الله ﷺ: «قَدْ أَذِنْتُ لِخَطِيبِكُمْ، فَلْيَقُمْ». فَجَرَت بين الوفد وبين المسلمين سجالات شعرية ومعارضات خطابية، كانت في النهاية سبباً في إسلامهم وإسلام قومهم بعد ذلك، حتى أنّ الأقرع بن حابس ـ وهو من كبارهم ـ دنا من رسول الله ﷺ فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، فقال النبيّ ﷺ: «لا يضرك ما كان قبل هذا»(٣).

والوفد الثالث كان لبني عبد القيس، حيث جاء رجل منهم وهو منقذ بن حيّان

---

(١) سنن أبي داود: ج ٣ ص ٣٦١ ح ٣٠٢٦.
(٢) زاد المعاد: ج ٣ ص ٦٤٤.
(٣) سير أعلام النبلاء: ج ٢٧ ص ٢٦٩؛ معرفة الصحابة لأبي نعيم: ج ١ ص ٥٣٣.

إلى المدينة للتجارة، فرأى النبيّ ﷺ وأنصت لكلامه فأعجبه فأسلم وحسن إسلامه، ثم بعثه النبيّ ﷺ بكتاب إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام، فتوافدوا عليه مسلمين.

وعن قدوم قومه ورد أنّ رسول الله ﷺ كان يحدّث أصحابه فقال لهم:

«سَيَطْلُعُ عَلَيْكُمْ مِنْ هَاهُنَا رَكْبٌ هُمْ خَيْرُ أَهْلِ الْمَشْرِقِ»، فَقَامَ عُمَرُ فَتَوَجَّهَ نَحْوَهُمْ فَلَقِيَ ثَلاثَةَ عَشَرَ رَاكِباً، فَقَالَ: مَنِ الْقَوْمُ؟ قَالُوا: مِنْ بَنِي عَبْدِ الْقَيْسِ، قَالَ: فَمَا أَقْدَمَكُمْ هَذِهِ الْبِلادَ؟ أَتِجَارَةٌ؟ قَالُوا: لا، قَالَ: أَمَا إِنَّ النبيّ ﷺ قَدْ ذَكَرَكُمْ آنِفاً فَقَالَ خَيْراً، ثُمَّ مَشَى مَعَهُمْ حَتَّى أَتَوَا النبيّ ﷺ، فَقَالَ عُمَرُ لِلْقَوْمِ: هَذَا صَاحِبُكُمُ الَّذِي تُرِيدُونَهُ، فَرَمَى الْقَوْمُ بِأَنْفُسِهِمْ مِنْ رَكَائِبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ مَشَى إِلَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ هَرْوَلَ، وَمِنْهُمْ مَنْ سَعَى حَتَّى أَتَوَا النبيّ ﷺ فَأَخَذُوا بِيَدِهِ فَقَبَّلُوهَا، وَتَخَلَّفَ الأَشَجُّ فِي الرِّكَابِ حَتَّى أَنَاخَهَا، وَجَمَعَ مَتَاعَ الْقَوْمِ، ثُمَّ جَاءَ يَمْشِي حَتَّى أَخَذَ بِيَدِ الرَّسُولِ ﷺ فَقَبَّلَهَا، فَقَالَ لَهُ النبيّ ﷺ: «إِنَّ فِيكَ خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ وَرَسُولُهُ»، فَقَالَ: جَبْلٌ جُبِلْتُ عَلَيْهِ أَمْ تَخَلُّقاً مِنِّي؟ قَالَ: «بَلْ جَبْلٌ؟» قَالَ: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي جَبَلَنِي عَلَى مَا يُحِبُّ اللهُ وَرَسُولُهُ(١).

إنّ تعامل الرسول ﷺ مع الوفود العربية من غير المسلمين بهذا المنهج الواضح الذي يدعو إلى دين الله بالحسنى مع فهم الواقع ليؤكّد سمة الإسلام الرئيسية في التعايش السلميّ مع الآخر ومدى التسامح الذي يبديه معهم، ممّا يُعَدُّ نموذجاً عظيماً يُهتدى به في الدعوة إلى الإسلام في كلِّ زمان ومكان.

❀ ❀ ❀

(١) دلائل النبوّة للبيهقي: ح ٢٠٨٣؛ والبداية والنهاية: ج ٥ ص ٦٥.

رسائل النبيّ إلى ملوك ورؤساء العرب

بعد أن تمَّ صلح الحُدَيْبِيّة في شهر ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة، رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، وبدأ بإرسال مكاتباته إلى الملوك من العرب والعجم ورؤساء القبائل والأساقفة والمرازبة وغيرهم يدعوهم إلى الإسلام.

أمّا رسائله إلى ملوك العرب ورؤساء القبائل فكان أبرزها إلى ملوك البحرين واليمامة والغساسنة، ففي سنة ثمان قبل فتح مكة بعث العلاء بن الحضرمي برسالته إلى ملك البحرين، وكان نصّها:

«بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم، مِنْ محمّد رَسُولِ اللهِ إِلَى الْمُنْذِرِ بْنِ سَاوَى، سَلامٌ عَلَيْكَ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللهَ الَّذِي لا إِلَهَ إلا هُوَ وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إلا اللهُ وَأَنَّ محمّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.. أَمّا بَعْدُ: فَإِنِّي أُذَكِّرُكَ اللهَ عَزّ وَجلّ، فَإِنَّهُ مَنْ يَنْصَحْ فَإِنَّمَا يَنْصَحُ لِنَفْسِهِ، وَإِنَّهُ مَنْ يُطِعْ رُسُلِي وَيَتّبِعْ أَمْرَهُمْ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ نَصَحَ لَهُمْ فَقَدْ نَصَحَ لِي، وَإِنّ رُسُلِي قَدْ أَثْنَوْا عَلَيْكَ خَيْراً، وَإِنّي قَدْ شَفَعْتُكَ فِي قَوْمِك، فَاتْرُكْ لِلْمُسْلِمِينَ مَا أَسْلَمُوا عَلَيْهِ، وَعَفَوْتُ عَنْ أَهْلِ الذُّنُوب فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَإِنّكَ مَهْمَا تُصْلِحْ فَلَنْ نَعْزِلَكَ عَنْ عَمَلِك، وَمَنْ أَقَامَ عَلَى يَهُودِيّةٍ أَوْ مَجُوسِيّةٍ فَعَلَيْهِ الْجِزْيَةُ»(١).

فقال المنذر لابن الحضرمي: «قد نظرت في هذا الذي في يدي فوجدته للدنيا دون الآخرة، ونظرت في دينكم فوجدته للآخرة والدنيا، فما يمنعني من قبول

---

(١) الثقات: ج ٢ ص ٣٠ـ٣١؛ تاريخ الطبري: ج ٢ ص ١٤٥؛ البداية والنهاية: ج ٦ ص ٣٢٧؛ زاد المعاد: ج ٣ ص ٦٩٢ـ٦٩٣؛ نصب الراية: ج ٤ ص ٤٢٠؛ السيرة الحلبية: ج ٣ ص ٣٠٠.

دين فيه أمنية الحياة وراحة الممات، ولقد عجبت أمس ممّن يقبله، وعجبت اليوم ممّن يردّه، وإنّ من أعظم ما جاء به أن يعظم رسوله وسأنظر»، فأسلم المنذر وحسن إسلامه[(١)].

وأما كتابه ﷺ إلى هَوْذَة بن عليّ الحنفي صاحب اليمامة، قال ﷺ فيه: «**بِسْمِ اللهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ، مِنْ محمّد رَسُولِ اللهِ إِلَى هَوْذَةَ بْنِ عَلِيّ، سَلامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى، وَاعْلَمْ أَنَّ دِينِي سَيَظْهَرُ إِلَى مُنْتَهَى الْخُفّ وَالْحَافِرِ، فَأَسْلِمْ تَسْلَمْ، وَأَجْعَلْ لَكَ مَا تَحْتَ يَدَيْك**»[(٢)].

واختار ﷺ لحمل هذا الكتاب سَلِيط بن عمرو العامري، فلما قدم سليط على هوذة بهذا الكتاب مختوماً أنزله وحيّاه، وقرأ عليه الكتاب، فردَّ عليه ردّاً دون ردّ، وكتب إلى النبيّ ﷺ: «ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله وأنا شاعر قومي وخطيبهم والعرب تهاب مكاني فاجعل لي بعض الأمر أتبعك»، وأجاز سَلِيطاً بجائزة وكساه أثواباً من نسج هجر. فقدم بذلك على النبيّ ﷺ فأخبره، وقرأ النبيّ ﷺ كتابه وقال: «لو سألني قطعة من الأرض ما فعلت، باد، وباد ما في يديه».

فلما انصرف النبيّ ﷺ من الفتح جاءه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنّ هوذة قد مات فقال ﷺ: «**أما إنّ اليمامة سيخرج بها كذاب يتنبّأ يقتل بعدي**»، فقال قائل: يا رسول الله مَن يقتله؟ فقال له رسول الله ﷺ: «**أنت وأصحابك**»[(٣)].

وبرغم أنّ الرسول ﷺ كان حريصاً على الحكمة والموعظة الحسنة في مكاتباته ومراسلاته، فقد وجد معارضةً وانتقاداً واستهزاء من بعض الملوك

---

(١) عيون الأثر: ج ٢ ص ٣٣٣.

(٢) تاريخ الطبري: ج ٢ ص ١٣٣؛ زاد المعاد: ج ٣ ص ٦٩٢-٦٩٦؛ السيرة الحلبية: ج ٣ ص ٣٠٣؛ الخصائص الكبرى: ج ٢ ص ١٧؛ المنتظم: ج ٣ ص ٢٨٣.

(٣) الطبقات الكبرى: ج ١ ص ٢٦٢؛ نصب الراية: ج ٤ ص ٤٢٥؛ زاد المعاد: ج ٣ ص ٦٩٦؛ المصباح المضي: ج ٢ ص ٢٩٨.

والأمراء، وهو ما يظهر جليّاً في ردِّ الحارث بن أبي شمر الغسّاني على كتاب الرسول ﷺ، حيث لم يدخل عليه شجاع بن وهب حامل الكتاب إلا بعد ثلاثة أيام، فلمّا أذن له بالدخول وقرأ كتاب رسول الله ﷺ رمى به، وقال: «مَنْ ينتزع منّي ملكي؟! أنا سائر إليه، ولو كان باليمن جئته»، وأمر بالخيل أن تنعل، ثمّ قال لشجاع: «أخبر صاحبك بما ترى» وكتب إلى قيصر يستأذنه في المسير، فلمّا قرأ قيصر كتاب الحارث كتب إليه ألا تَسِرْ إليه والْهُ عنه ووافني بإيلياء، ولذلك دعا عليه النبيّ ﷺ فقال: باد ملكه[1].

وفي المقابل نجد حاجب الحارث الغساني رجلاً روميّاً يُدعى (مري) بكى عندما سمع من شجاع بن وهب عن النبيّ ﷺ ما وجده في الإنجيل فرقَّ قلبه، وأكرم شجاعاً، وقال له: «اقرأ على رسول الله ﷺ منّي السلام وأخبره أنّي متّبع دينه»[2].

تلك بعض الأمثلة لمعاملة الرسول ﷺ ملوك ورؤساء العرب غير المسلمين في مكاتباته ومراسلاته، وهي أصل لما بات يُعرف بإدارة العلاقات الدولية بين الدول، مقدِّماً بذلك نموذجاً أبهر المنصفين على اختلاف انتماءاتهم في تأسيس التعايش السلمي مع الآخر خارج حدود الدولة في إطار من السلام والرحمة والدعوة إلى الخير.

❀ ❀ ❀

(١) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى: ج ١ ص ٢٨٩، ونصب الراية للزيلعي: ج ٦ ص ٥٦٦، وتاريخ دمشق: ج ٥٧ ص ٣٦٨.
(٢) زاد المعاد: ج ٣ ص ٥٠١.

رسائل النبيّ إلى ملوك غير العرب

جاءت رسالة الإسلام عالمية لم تتوقّف عند حدود مكة أو العرب فقط بل شملت العالم كلّه، تصديقاً لقول الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان: ١]، وتحقيقاً لعالمية الإسلام، التي تأكّدت في آيات الذكر الحكيم، مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۝٢٨﴾ [سبأ: ٢٨].

ولذلك فبعد صلح الحديبية أرسل الرسول ﷺ رسائل إلى ملوك غير العرب من الدول المجاورة وعلى رأسها الإمبراطوريتان العظيمتان في ذلك الحين الفرس والروم.

فقد أرسل النبيّ ﷺ كتاباً يحمله دحيّة بن خليفة الكلبي، وأمره أن يدفعه إلى عظيم بُصرى، ليدفعه إلى هرقل ملك الروم، وقال فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمّد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم: سلام على من اتّبع الهدى، أمّا بعد فإنّي أدعوك بدعوةِ الإسلام أسْلِمْ تَسْلَمْ يؤتِكَ اللهُ أجرَك مرّتين، فإنْ توليتَ فعليكَ إثمُ جميع الأريسيين: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝٦٤﴾ [آل عمران: ٦٤]»[1].

(١) عيون الأثر: ج ٢ ص ٣٣٤، وهداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى: ج ١ ص ٢٧٥ـ٢٧٦.

وبعدها بعث هرقل إلى ركب قريش يستفسر منهم عن هذا النبيّ الذي ظهر فيهم، وقال لأبي سفيان بعد حوار بينهما حول صفات النبيّ ﷺ: «إن كان ما تقول حقّاً فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنّه خارج، لم أكن أظنّ أنّه منكم، فلو أنّي أعلم أنّي أخلص إليه لتجشّمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه»[1].

كما أرسل النبيّ ﷺ بكتاب إلى المقوقس يحمل المعنى نفسه بل وغالب الألفاظ، بعث به مع حاطب بن أبي بلتعة، وبعد حوار طويل بينهما أخذ المقوقس كتاب النبيّ ﷺ فجعله في حُقّ مَنْ عاج وختم عليه ودفعه إلى جارية له، ثم دعا كاتباً له يكتب بالعربية فكتب إلى رسول الله ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم لمحمّد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك أمّا بعد.. فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه، وقد علمت أنّ نبيّاً بقي وكنت أظنّ أنّه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم وبكسوة وأهديت إليك بغلة لتركبها والسلام عليك، ولم يزد علي هذا ولم يسلم»[2].

فهو ﷺ في كتابيه إلى قيصر والمقوقس أشار إلى ما بين الأديان السماوية من روابط، ذلك لأنّهما أهل كتاب، إضافة إلى دقّة النبيّ في اختيار رُسُله إلى الملوك، فهم من ذوي الفصاحة والبلاغة واللياقة والأدب الجمّ.

أمّا في حالة الملوك من غير أهل الكتاب فقد أشار الرسول ﷺ في رسائله إليهم إلى التزام البشرية بالعودة إلى الله وترك عبادة ما سواه، وهو ما جاء في نصّ كتابه إلى كسرى ملك الفرس: «بسم الله الرحمن الرحيم.. من محمّد رسول الله

(١) صحيح البخاري: ج ١ ص ١٥.
(٢) زاد المعاد: ج ٣ ص ٦٠٠.

إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتَّبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمّداً عبده ورسوله، وأدعوك بدعاية الله، فإنّي أنا رسول الله إلى الناس كافّة، لينذر مَن كان حيّاً ويحقّ القول على الكافرين، فأسلم تسلم، فإن أبيت فإنَّ إثم المجوس عليك»[1].

واختار لحمل هذا الكتاب عبد الله بن حذافة السهمي، فلمّا قُرِئ الكتاب على كسرى مزّقه، ونبس بكلمات لا تليق بالردّ، فلمّا بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال: «**مزَّق الله ملكه**»، وقد كان كما قال[2].

وممّا ينبغي ملاحظته في هذا الصدد أنّ كتب الرسول ﷺ إلى ملوك العجم قد صيغت بكلِّ حكمة وبراعة، فالرسول فيها سَمْحٌ يدعو ولا يهدّد، يخاطب الملوك والرؤساء بألقابهم ويعترف بمكانتهم ويقرّر أنَّ سلطانهم في ظلِّ الإسلام باقٍ لهم، نظراً لمعرفته بطبيعتهم المتمسِّكة بالملك والسيادة والسلطان، مؤكّداً بذلك أنّه ليس طالب ملك أو دنيا.

إنَّ تطلّع الرسول ﷺ إلى نشر دعوة الإسلام في ربوع العالم دعاه إلى مخاطبة الملوك والرؤساء بما يتناسب مع مقتضى العصر ومتطلّبات الواقع آنذاك، وبما لا يضع من مكانة الإسلام والمسلمين بين شعوب الأرض، وإنّما هو عزّ في لين وقوّة مع نور ورحمة للعالمين..

❀ ❀ ❀

(١) عيون الأثر: ج ٢ ص ٣٢٧.
(٢) معرفة السنن والآثار: ج ٧ ص ١٠٧.

تعامل النبيّ في الحرب وعصمة الدماء

جاء الإسلام ديناً للسلام بين شعوب الأرض، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣] والتعارف لا يأتي إلا عن طريق السلام، كذلك أرسل الله عزّ وجلّ رسوله محمّداً ﷺ رحمة للعالمين: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ولهذا كانت سياسة الرسول ﷺ في المدينة نبذ الحرب واتِّقاءَها نظراً لما تخلِّفه من تدمير وتخريب، فقال: «أيّها الناس لا تَمَنّوا لقاء العدوّ وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا»[1]، كما أوصى جيش المسلمين في الحروب بقوله: «انطلقوا باسم الله وبالله وعلى مِلّة رسول الله، لا تقتلوا شيخاً فانياً ولا طفلاً صغيراً ولا امرأة.. وأصلحوا وأحسنوا إنّ الله يحبّ المحسنين»[2].

فالمنهج تجاه الحروب هو تجنّبها قدر الاستطاعة، لأنّها استثناء، فإن كانت فعلى المسلمين الصبر والثبات وعدم التجاوز: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البقرة: ١٩٠].

والسلام هو المبدأ الرئيس، وهو الغاية والهدف، أمّا الحرب فهي إحدى وسائل تحقيق هذا الهدف، قال تعالى: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾﴾ [النساء: ٩٠]. وجاءت آية أخرى

(١) صحيح البخاري: ج ٣ ص ١٠٨٢.
(٢) سنن أبي داود: ج ٣ ص ٣٧.

تحثُّ على السلم وتؤكّده في مبدأ قرآني ربّاني يتميّز بالقطع والشمول والعموم في كلِّ زمان ومكان: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا ﴿٦١﴾ ﴾ [الأنفال: ٦١].

ومن لطائف حرص الإسلام على السلام أنّ القتال لم يشرّع في القرآن أمراً، بل جاء إذناً فقال سبحانه: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج: ٣٩]، ذلك أنَّ الحرب هي شرٌّ لدفع شرٍّ أكبر منه، فالنفس البشرية تعوّدت على أنّ بعض الشرور لا تدفع بالخير، بل لا تقهر إلا بشرّ آخر، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٌ لَّكُمۡۖ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦].

ومن أهداف الإسلام في الحرب عصمة الدماء لأدنى شبهة، فلا يحلّ دم مَنْ نَطَقَ بالشهادتين، لأنّنا أُمِرنا بالأخذ بالظاهر وعدم التفتيش عن قلوب الناس، ولو أظهر أحد المقاتلين الشهادة عصم دمه وأمن.

قال المقداد بن الأسود الكندي ذات يوم للرسول ﷺ: أرَأَيْتَ إن لَقِيتُ رجُلاً من الْكُفّارِ فاقْتَتَلْنَا فضَرَبَ إحْدَى يدَيَّ بالسَّيْفِ فقَطَعَهَا، ثمَّ لاذَ منِّي بشَجَرَةٍ، فقال: أسْلَمْتُ للهِ، أقتله يا رسُولَ اللهِ بعْدَ أنْ قالَهَا؟

فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «لا تقْتُلْهُ».

فقال: يا رسُولَ اللهِ، إنه قطَعَ إِحدَى يدَيَّ، ثمَّ قال ذلك بَعدَ ما قطَعَهَا؟

فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «لا تَقتُلْهُ، فإنْ قَتلتَهُ فإنه بِمَنزِلَتِكَ قبل أنْ تَقتُلَهُ، وإنَّكَ بِمَنزِلَتِهِ قبل أنْ يقُولَ كلِمَتَهُ التي قال»(١).

وفي هذا المعنى قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا ﴿٩٤﴾﴾ [النساء: ٩٤]، ومعنى ألقى السلام أظهره بينكم، والسلام سواء عند مَنْ قرأها بالألف أو بدونها، هو مشترك بين معنى السِّلم ضدّ الحرب ومعنى تحيّة

---

(١) صحيح البخاري: ج ٤ ص ١٤٧٤ ح ٣٩٧٤؛ صحيح مسلم: ج ١ ص ٩٥ ح ٩٥.

الإسلام، فهي قول: السلام عليكم، ومقتضى الإطلاق أنّ مَنْ قال: لا إله إلا الله محمّد رسول الله، أو قال «إنّي مسلم» يُحكم له بحكم الإسلام.

قال الإمام الشافعي: «إنّما منع رسول الله ﷺ من قتل المنافقين ما كانوا يظهرونه من الإسلام مع العلم بنفاقهم؛ لأنّ ما يظهرونه يجبُّ ما قبله، ويؤيّد هذا قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث المجمع على صحّته في الصحيحين وغيرهما: «أُمِرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقّها، وحسابهم على الله»، ومعنى هذا: أنّ من قالها جرت عليه أحكام الإسلام ظاهراً، فإن كان يعتقدها وجد ثواب ذلك في الدار الآخرة، وإن لم يعتقدها لم ينفعه في الآخرة جريان الحكم عليه في الدنيا، وكونه كان خليط أهل الإيمان»[1].

وقال الشيخ رشيد رضا: «والتحقيق أنّ المراد من الحديث هو ترك الكفر والدخول في الإسلام، وللدخول في الإسلام صيغة وعنوان يكتفى به في أوّل الأمر، ولا سيّما مواقف القتال، وهو النطق بالشهادتين، وقد يكتفى من المشرك بكلمة: لا إله إلا الله، لأنّهم كانوا ينكرونها، وهي أوّل ما دعوا إليه، بل أنكر النبيّ ﷺ على خالد بن الوليد قتل مَنْ قتل من بني جذيمة بعد قولهم صبأنا، وقال: «**اللهم إني أبرأ إليك ممّا فعل خالد**»، وذلك أنّهم كانوا يعبّرون بهذه الكلمة عن الإسلام فيقولون: صبأ فلان: إذا أسلم، والحديث في مواضع من صحيح البخاري وغيره، وإنّه ـ أي الحديث ـ وارد في بيان الغاية التي ينتهي إليها قتال مَنْ يقاتلنا من الكفار، فلا يدخل في معناه بيان ما يصير به المؤمن كافراً»[2].

(١) تفسير ابن كثير: ج ١ ص ٩٠.
(٢) تفسير المنار: ج ١٠ ص ١٥٣.

تعامل الرسول مع الأسرى

جاء الإسلام ليقرّ مبدأ السلام بين الشعوب والأمم، مقرّراً أنّه هو الأصل والحرب هي الاستثناء، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً (٢٠٨)﴾ [البقرة: ٢٠٨].

وفي سبيل ذلك دعا إلى تجنّب ويلات الحروب والنزاعات، وأبان عن كراهية النفس للقتال ابتداء وإن كان واجباً ودفاعاً، فقال سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ (٢١٦)﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقال أيضاً: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ (٧)﴾ [الأنفال: ٧]، ورغم ذلك فلم يتغاضَ عن وضع قوانين للحرب في حالة وقوعها، وجعل الحرب في المقام الأول دفاعية وليست هجومية، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ (١٩٣)﴾ [البقرة: ١٩٣].

وفي غمار الحروب يسقط القتلى والجرحى من الأطراف المتنازعة، كما يقع بعض المقاتلين في الأسر، وقد وضع الإسلام أسس التعامل مع كلِّ حالة من هذه الحالات، وأهمّها أنّ رسول الله ﷺ كان إذا بعث أميراً على جيش أوصاه ومَن معه من المسلمين بقوله: «**لا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثّلوا ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا شيخاً**»[1].

(١) سنن الترمذي: ج ٥ ص ٤٤٧.

وقال ﷺ يوم فتح مكة: «**ألا لا يُقتل مدبر، ولا يُجهز على جريح، ومَنْ أغلق بابه فهو آمن**»[1]. ولذلك كان ديدن المسلمين في قتالهم أنّهم لا يتبعون فارّاً هارباً من المعركة، ولا يقتلون أسيراً استسلم، بل لا يقطعون شجراً، ولا يردمون بئراً ولا يهدمون بيتاً.

وقد حثَّ الإسلام على معاملة الأسير معاملة كريمة لا تُهان فيها كرامته ولا تُنتهك حرمته، دون اعتبار لاختلاف الدين أو كونه من الأعداء، وعدُّ تلك المعاملة من صفات الأبرار، حيث قال الله تعالى فيهم: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإنسان: ٨]، وأوصى رسول الله ﷺ أصحابه بحسن معاملة الأسرى فقال: «**اسْتَوْصُوا بالأَسَارَى خيْراً**»[2].

وبهذا الأمر حوَّل الإسلام غريزة الانتقام من العدوّ الأسير إلى أداة فضل ورحمة، فلم يقتصر على النهي عن تعذيبه أو تجويعه، بل امتدّ إلى الحثّ على الإحسان إليه وإكرامه ومساواته بالمسكين واليتيم، وبهذا تتحوّل إحدى تبعات الحروب، رغم ضراوتها وقسوتها، إلى عبادة يرجو صاحبها رضا الله عزّ وجلّ ويصبح بها من الأبرار.

وقد قدَّم لنا رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة والقدوة الطيّبة في معاملة الأسرى في المواطن كلّها، ففي غزوة بدر أنكر رسول الله ﷺ على بعض الصحابة

(١) المصنّف لابن أبي شيبة: ج ٦ ص ٤٩٨ ح ٣٣٢٧٦. وقد اقتفى أثره ﷺ ابن عمه الإمام عليّ عليه السلام، عن عليّ بن الحسين عليه السلام، قال: دخلت على مروان بن الحكم فقال: ما رأيت أكرم غلبةً من أبيك، ما هو إلا أن ولينا يوم الجمل فنادى مناديه: «لا يقتل مدبر، ولا يذفّف على جريح، ولا يقتل أسير، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن، وإياكم والنساء وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم، ولا يكشف عورة، ولا يهتك ستر، ولا يدخل دار إلا بإذن، ولا تسلبنّ قتيلاً، ولا تمثّلوا بقتيل، ولا تأخذوا من أموالهم شيئاً، ولا تطلب هارباً، ولا تسبى الذرية، ولا تحبس النساء والذرية». راجع: السنن الكبرى: ج ٨ ص ١٨١ ح ١٦٥٢٤؛ المصنف لابن أبي شيبة: ج ٦ ص ٤٩٨ ح ٣٣٢٧٧ و ج ١٠ ص ١٢٤ ح ١٨٥٩١؛ كنز العمال: ج ٤ ص ٢٠٥ ح ١١٤٢٤ و ج ١١ ص ١٥٠ ح ٣١٦٧٢؛ أنساب الأشراف: ج ٢ ص ٢٦٢؛ سنن سعيد بن منصور: ج ٢ ص ٣٣٧.

(٢) المعجم الكبير: ج ٢٢ ص ٣٩٣ ح ٩٧٧؛ مجمع الزوائد: ج ٦ ص ٨٦؛.

عندما ضربوا غلامين من قريش وقعا أسيرين، حيث قال لهم: «إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما»[1].

وبعد أن نصر الله عزّ وجلّ المسلمين في غزوة بدر وقع في الأسر سبعون أسيراً من قريش، عاملهم الرسول ﷺ معاملة طيّبة، وأمر أصحابه بحُسْن معاملتهم، يقول أبو عزيز بن عمير أخو مصعب وكان في أسرى بدر: «كنت مع رهط من الأنصار حين قفلوا، فكانوا إذا قدّموا طعاماً خصّوني بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله ﷺ إيّاهم بنا، ما يقع في يد رجل منهم كسرة إلا نفحني بها»، قال: فأستحي فأردّها على أحدهما، فيردّها على ما يمسّها»[2].

كذلك حثَّ الرسول ﷺ الصحابة على إكرام الأسرى فقبل الفداء من بعض الأسرى، ومن لم يستطع دفع الفدية، قبل منه أن يعلّم عشرة من أبناء المسلمين الكتابة، وعفا عن بعضهم، تحقيقاً لأمر الله تعالى في محكم التنزيل: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴿٤﴾﴾ [محمد: ٤].

ومن تطبيقات ذلك أيضاً أنّ النبيّ ﷺ أعطى أسيراً لأبي الهيثم بن التيهان وأوصاه به خيراً فقال له: إنّ رسول الله ﷺ أوصاني بك خيراً، فأنت حرٌّ لوجه الله[3].

❀ ❀ ❀

(١) الثقات: ج ١ ص ١٦٠؛ السيرة النبوية: ج ٣ ص ١٦٤؛ البداية والنهاية: ج ٢ ص ٢٦٥؛ الروض الأنف: ج ٣ ص ٦٠.

(٢) الروض الأنف: ج ٣ ص ٩٦؛ السيرة النبوية: ج ٣ ص ١٩٥؛ البداية والنهاية: ج ٣ ص ٣٠٧.

(٣) شعب الإيمان: ج ١٠ ص ١٢٨.

وأخيراً

منذ أن نزل الوحي على رسول الله ﷺ في غار حراء، كانت دعوته تعتمد السلام منهاجاً، والتسامح سلوكاً، فقد بدأ ﷺ دعوته بالحكمة والموعظة الحسنة ولم يتخلَّ يوماً عن الرِّفق واللين في القول والعمل، عملاً بقول الله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل: ١٢٥].

وبهذا المنهج الوسطي اليسير أسّس الإسلام مبدأ التعايش بين جميع الأطياف والمذاهب المختلفة في إطار من العدل والمساواة والدعوة إلى التعارف والتعاون، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣]. كما عمل على توطيد العلاقات السلمية بين الناس في الداخل والخارج قال سبحانه: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ [الممتحنة: ٨].

ومن خلال ما قدّمناه من نماذج يتبيّن لنا كيف حقّق الإسلام قيم التسامح والسلام والرحمة بصورة واضحة في التعايش بين الأديان والمذاهب المختلفة، على أساس من حرية ممارسة الشعائر الدينية والتخلي عن التعصب الديني والتمييز العنصري، بل نراه كيف منح الحرية في الإبداع من خلال دائرة الاجتهاد القائمة إلى يوم الدين.

كذلك أكّد الرسول ﷺ من خلال هذه النماذج أنّ الإسلام يرسّخ حقوق المواطنة في دولته للمسلم وغيره، فالجميع سواء من حيث الحقوق والواجبات، وهو ما اتّضح في وثيقة المدينة التي عقدها بمجرّد وصوله إليها، وهي معاهدة تمثّل دستوراً شاملاً يعالج قضايا التكامل الاجتماعي والاقتصادي والعلاقات القانونية داخل الدولة وخارجها.

والسيرة النبوية المشرفة تزخر بالأمثلة والروايات التي تؤكّد أنَّ الإسلام دين السلام والتعاون، فالدولة الإسلامية في عهد الرسول عملت على مدِّ جسور الحوار البناء والتعايش السلمي داخل الدولة الإسلامية بين مواطنيها على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم، وخارجها في علاقاتها مع دول الجوار، وذلك عبر توطيد العلاقات السلمية من خلال المعاهدات التي أبرمها الرسول ﷺ مع مختلف القبائل والدول المجاورة، دون اعتبار لاختلاف الدين أو العرق أو اللون، إذ هدف هذه الرسالة العالمية هو الحفاظ على بنية الإنسان جسمانياً وفكرياً وروحياً، واتّضح ذلك من خلال تكريم الله تعالى للإنسان وتسخير الكون له، وذلك بغية تحقيق سعادته في الدنيا، وفوزه بالنعيم المقيم في الآخرة: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ٧٠] ومن هنا جاء اهتمام الإسلام بالإنسان، فجعل مقاصد الشريعة تدور حوله وتحقّق له ومنه وبه، ولذلك فرض عليها الحفاظ على النفس والعقل والدين والعرض والمال، سواء كان ذلك له أو لغيره.

ومن أجل الحفاظ على هذه المقاصد هذَّب وعالج الإسلام نزعة الحرب والاعتداء والانتقام في نفس الإنسان المسلم، فنهى عن ترويع الآمنين وعن قتل المسالمين، ولم يشرّع الحرب إلا بغية الدفاع والذود عن حياض الدولة الإسلامية، فجاءت الحرب في الإسلام ـ على خلاف ما يُشاع حول الدولة

الإسلامية ـ للحفاظ على الإنسان، والحدّ من إراقة الدماء وإزهاق الأرواح.

فالإسلام لم يكن يوماً ديناً يهتمُّ فقط ويختصُّ به مَن أسلم وآمن بالله ورسوله، ولكنّه أيضاً مجتمع يحافظ على الناس جميعهم، ويحافظ أيضاً على المقاصد الخمسة التي بها قيام حياة الإنسان، ومنها الدين الذي أباح الله سبحانه وتعالى قبول التعدّد فيه تحت مظلّة مقاصد الشرع وقيم العدل والمساواة والإحسان، مع مراعاة النظام العام لإقامة الدول الذي لا بدَّ فيه من المحافظة على هُويّتها الثقافية والفكرية والحضارية، وعدم المساس بالثوابت والقواعد الشرعية والأخلاقية.

وامتثالاً لأمر الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴿٧﴾﴾ [الحشر: ٧]. يجب علينا أن ندرس سيرة رسول الله ﷺ مع سنّته في نسق واحد، ونحاول أن نستخرج منها مكوِّنات الشخصية المسلمة، سواء من الناحية العقلية أو النفسية، أو من ناحية المناهج التي يلتزمها في تقويمه للمواقف، وإنشائه للعلاقات، وفهمه للأمور، ومواجهته للعالمين، عيشاً ومشاركة وتفاهماً وتعاوناً وعبادة لله وعمارة للأرض وتزكية للنفس، وبذلك يتخذ المسلم النبيّ ﷺ أسوة حسنة، ويتحقّق بالتكليف والتشريف في مقام الشهادة على العالمين، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة: ١٤٣].

فدراسة السيرة النبوية تؤدّي إلى التمسّك بهدي النبيّ الكريم ﷺ، وتقي من كلِّ انحراف عن منهجه وهديه بالاجتزاء، أو التأويل الخاطئ، أو التقصير في الفهم، أو القصور في الإدراك أو الإفراط أو التفريط أو المغالطة في السلوك والتطبيق، أو نحو ذلك من انحرافات الفكر والسلوك، ذلك أنّ الرسول ﷺ هو الأسوة الحسنة والقدوة الطيّبة، مصداقاً لقوله سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١].

وختاماً فإنَّ الإسلام جاء للحفاظ على أمّة الدعوة ـ وهي الإنسان في كلٍّ زمان ومكان، فرداً أو جماعة أو أمّة ـ لأنّها المحلّ الواسع للدعوة إلى الله تعالى، ولأنّها أصل أمّة الإجابة، وأساس دعوة الإسلام، وبهذا الملحظ الدقيق ندرك قول الله تعالى لنبيِّه محمّد ﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

❀ ❀ ❀

مصادر

١. إتحاف الورى بأخبار أم القرى، عزّ الدين عبد العزيز عمر بن محمّد بن فهد (ت ٩٢٢هـ)، ط١، تحقيق: فهيم محمّد شلتوت، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م.
٢. أحكام أهل الذمّة، أبو عبد الله شمس الدين محمّد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، تحقيق: يوسف أحمد البكري وشاكر توفيق العاروري، دار رمادي للنشر، دار ابن حزم، الدمام، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.
٣. أخلاق النبيّ وآدابه، عبد الله بن محمّد بن جعفر بن حيان الأصبهاني، تحقيق: صالح بن محمّد الونيان، دار المسلم للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٩٩٨م.
٤. أدبيّات التعايش بين المذاهب، حسين عليّ المصطفى، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت، ط٢، ٢٠١٣م.
٥. أسد الغابة في معرفة الصحابة، عزّ الدين بن الأثير أبي الحسن عليّ بن محمّد الجزري (ت ٦٣٠هـ)، تحقيق: عادل أحمد الرفاعي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦ م.
٦. الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن عليّ بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي (ت ٨٥٢هـ)، تحقيق: عليّ محمّد البجاوي، دار الجيل، بيروت،

الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
٧. إعلام الورى بأعلام الهدى، أبو عليّ الفضل بن الحسن الطبرسي (ت ٥٤٨هـ)، صحّحه وعلّق عليه: علي أكبر الغفاري، د.ط، دار المعرفة، بيروت لبنان، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
٨. الأمالي، محمّد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ)، مؤسسة البعثة، قم ـ إيران، الطبعة: الأولى، ١٤١٤ هـ.
٩. أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت ٢٧٩هـ)، تحقيق: د. سهيل زكار و د. رياض زركلي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.
١٠. الأنوار في شمائل النبيّ المختار، الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: الشيخ إبراهيم اليعقوبي، دار الضياء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.
١١. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، محمّد باقر المجلسي (ت ١١١١هـ) ط٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
١٢. البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، أبو العباس أحمد بن محمّد بن المهدي بن عجيبة الحسني الإدريسي الشاذلي الفاسي (ت ١٢٢٤هـ)، تحقيق: أحمد عبد الله قرشي رسلان، القاهرة، ١٤١٩هـ.
١٣. البداية والنهاية، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت ٧٧٤هـ)، ط١، دار الحديث، القاهرة، ١٤١٣هـ.
١٤. البصائر والذخائر، أبو حيان علي بن محمّد بن العباس التوحيدي، تحقيق: د. وداد القاضي، دار صادر، بيروت، الطبعة: الرابعة، ١٤١٩هـ ـ ٩٩٩م.
١٥. بلاغات النساء وطرائف كلامهن وملح نوادرهن وأخبار ذوات الرأي منهن، أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر ابن طيفور (ت ٢٨٠هـ)، تحقيق: أحمد الألفي، مطبعة مدرسة والدة عباس الأول، القاهرة، ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م.

١٦. تاريخ الرسل والملوك «تاريخ الطبري»، أبو جعفر محمّد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، ط٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م.
١٧. تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن عساكر الشافعي (ت ٥٧١هـ)، تحقيق: محبّ الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥.
١٨. تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب (ت ٢٨٢هـ) تحقيق: السيّد محمّد صادق بحر العلوم، د.ط، منشورات المكتبة الحيدرية، النجف الأشرف العراق، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.
١٩. تحف العقول عن آل الرسول، أبو محمّد بن الحسن بن علي (ابن شعبة الحراني، القرن الرابع)، مؤسسة النشر الإسلامي، قم ـ إيران، ١٤١٤هـ.
٢٠. تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، أبو العلا محمّد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري (ت ١٣٥٣هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢١. تفسير البغوي، البغوي، تحقيق: خالد عبد الرحمن العك، دار المعرفة، بيروت.
٢٢. تفسير البيضاوي، البيضاوي، دار الفكر، بيروت.
٢٣. تفسير العياشي، أبو النضر محمّد بن مسعود بن عياش السلمي العياشي (ت ٣٢٠هـ)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة: الأولى، بيروت، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.
٢٤. تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر بن كثير، (ت ٧٧٤هـ)، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، الرياض ـ السعودية، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.
٢٥. تفسير القمي، أبو الحسن علي بن إبراهيم القمي (ت ٣٠٧هـ)، تصحيح:

السيد طيب الله الموسوي الجزائري، النجف الأشرف، مطبعة النجف الأشرف، الطبعة: الثانية، ١٣٨٧هـ.
٢٦. تفسير من وحي القرآن، السيد محمّد حسين فضل الله، دار الملاك، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.
٢٧. تفسير المنار، محمّد رشيد بن علي رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٠م.
٢٨. تفسير نور الثقلين، عبد علي بن جمعة العروسي الحويزي (ت ١١١٢هـ)، تحقيق: علي عاشور، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٤٢هـ-٢٠٠١م.
٢٩. تلخيص الحبير في أحاديث الرافعي الكبير، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: السيد عبد الله هاشم اليماني المدني، دار المحاسن للطباعة، المدينة المنورة، ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م.
٣٠. تهذيب الأسماء واللغات، محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف بن مرِّي النووي الشافعي (ت ٦٧٦هـ)، دار الفكر، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٩٦م.
٣١. الثقات، أبو حاتم محمّد بن حبان بن أحمد التميمي البستي، تحقيق: السيد شرف الدين أحمد، دار الفكر، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م.
٣٢. جامع الأحاديث (الجامع الصغير وزوائده والجامع الكبير)، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق وجمع وترتيب: عباس أحمد صقر وأحمد عبد الجواد، دار الفكر، ١٩٩٤م-١٤١٤هـ.
٣٣. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمّد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ.
٣٤. جواهر المطالب في مناقب الإمام الجليل عليٍّ بن أبي طالب، محمّد بن أحمد بن ناصر الدمشقي الباعوني الشافعي، تحقيق: الشيخ محمّد

باقر المحمودي، مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، إيران، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ.
٣٥. الخرائج والجرائح، قطب الدين الراوندي (ت ٧٥٣هـ)، مؤسسة الإمام المهدي ﷺ، قم، إيران، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ.
٣٦. الخصائص الكبرى، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.
٣٧. الخصال، أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي الشيخ الصدوق (ت ٣٨١هـ) د.ط، مؤسسة النشر الإسلامي، قم إيران، ١٤٠٣هـ.
٣٨. دراسات في ولاية الفقيه وفقه الدولة الإسلامية، الشيخ حسين علي المنتظري، المركز العالمي للدراسات الإسلامية، قم، إيران، الطبعة: الثانية، ١٤٠٩هـ.
٣٩. الدر المنثور، عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣م.
٤٠. دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨هـ)، تحقيق: د. عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية ودار الريان للتراث، بيروت والقاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
٤١. ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، محبّ الدين أحمد بن عبد الله الطبري (ت ٦٩٤هـ)، دار الكتب المصرية، مصر.
٤٢. الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، عبد الرحمن بن عبدالله الخثعمي السهيلي(ت ٥٨١هـ)، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دار الفكر، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.
٤٣. زاد المعاد في هدي خير العباد، أبو عبد الله محمّد بن أبي بكر أيوب الزرعي (ت ٧٥١هـ)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة

الرسالة، مكتبة المنار الإسلامية، بيروت، الكويت، ط ١٤، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م.
٤٤. سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، محمّد بن يوسف الصالحي الشامي (ت ٩٤٢هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمّد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ.
٤٥. سنن ابن ماجة، أبو عبد الله محمّد بن يزيد القزويني، تحقيق: محمّد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.
٤٦. سنن أبي داود، أبو داود سليمان السجستاني (ت ٢٧٥هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م.
٤٧. سنن البيهقي الكبرى، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي (٤٥٨هـ)، تحقيق: محمّد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.
٤٨. سنن الترمذي، محمّد بن عيسى بن سورة السلمي (ت ٢٩٧هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٥هـ.
٤٩. سنن سعيد بن منصور، سعيد بن منصور (ت ٢٢٧هـ)، تحقيق: د. سعد بن عبد الله بن عبد العزيز آل حميد، دار العصيمي، ط١، الرياض، ١٤١٤هـ.
٥٠. سنن النسائي، أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني (ت ٣٠٣هـ)، تحقيق أحمد شمس الدين، طبع دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.
٥١. سير أعلام النبلاء، أبو عبد الله شمس الدين محمّد الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، دار الفكر، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ.
٥٢. سيرة ابن إسحاق (المبتدأ والمبعث والمغازي)، محمّد بن إسحاق بن

يسار (ت ١٥١هـ)، تحقيق: محمّد حميد الله، معهد الدراسات والأبحاث للتعريف.
٥٣. السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، علي بن برهان الدين الحلبي (ت ٨٤١هـ)، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٠هـ.
٥٤. السيرة النبوية لابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤هـ)، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧١.
٥٥. السيرة النبوية لابن هشام، أبو محمّد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري (ت ٢١٣هـ)، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ.
٥٦. شرح نهج البلاغة، أبو حامد عزّ الدين بن هبة الله بن محمّد بن محمّد ابن أبي الحديد المدائني (ت ٦٥٥هـ)، تحقيق: محمّد عبد الكريم النمري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.
٥٧. شعب الإيمان، أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ.
٥٨. شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تقي الدين محمّد بن أحمد الحسيني الفاسي المكي (ت ٨٣٢هـ)، تحقيق: لجنة من كبار العلماء والأدباء، دار الكتب العلمية، بيروت.
٥٩. الصارم المسلول على شاتم الرسول، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (ت ٧٢٨هـ)، تحقيق: محمّد عبد الله عمر الحلواني ومحمّد كبير أحمد شودري، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ.
٦٠. الصافي في تفسير القرآن، محمّد محسن بن مرتضى بن محمود الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١هـ)، دار الكتب الإسلامية، تحقيق: السيد محسن

الحسيني الأميني، إيران، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ.
٦١. الصحيح، أبو عبد الله محمّد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م.
٦٢. الصحيح، مسلم بن الحجاج القشيري، (ت ٢٦١هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٨م.
٦٣. الطبقات الكبرى، أبو عبد الله محمّد بن سعد كاتب الواقدي (ت ٢٣٠هـ)، دار صادر، بيروت.
٦٤. عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسّير، أبو الفتح محمّد بن محمّد بن محمّد بن سيد الناس اليعمري (ت ٧٣٤هـ)، تحقيق: محمّد الخطراوي ومحي الدين مستو، مكتبة دار التراث ودار ابن كثير، المدينة المنورة ودمشق وبيروت.
٦٥. عيون أخبار الرضا، محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه الصدوق القمي (ت ٣٨١هـ)، منشورات جهان، طهران ـ إيران.
٦٦. عيون الحكم والمواعظ، كافي الدين أبو الحسن علي بن محمّد الليثي الواسطي، تحقيق: حسين الحسني البيرجندي، دار الحديث، قم إيران، الطبعة: الأولى، ١٣٧٦هـ ش.
٦٧. الغارات، أبو إسحاق إبراهيم بن محمّد الثقفي الكوفي (ت ٢٨٣هـ)، تحقيق: جلال الدين المحدث، طهران، إيران.
٦٨. غرر الخصائص الواضحة، أبو إسحاق برهان الدين محمّد بن إبراهيم بن يحيى بن علي المعروف بالوطواط (ت ٧١٨هـ)، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٨م.
٦٩. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الكناني الشافعي (ت ٨٥٢هـ)، دار الفكر، ١٤٢٠هـ.

٧٠. فقه السيرة، د. محمّد سعيد البوطي (ت ١٤٣٤هـ)، جامعة دمشق، دمشق، الطبعة: السابعة، ١٩٩٩م.
٧١. الكافي، محمّد بن يعقوب الكليني، (ت ٣٢٩هـ)، دار الأضواء، لبنان ـ بيروت، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.
٧٢. الكامل في التاريخ، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمّد بن محمّد بن عبد الكريم الشيباني (ت ٦٣٠هـ)، تحقيق: عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٥هـ.
٧٣. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (ت ٥٣٨هـ)، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٧٤. كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي (ت ٩٧٥هـ)، تحقيق: محمود عمر الدمياطي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.
٧٥. المبسوط، شمس الدين السرخسي (ت ٤٨٣هـ)، دار المعرفة، بيروت.
٧٦. مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت ٥٤٨هـ)، دار المعرفة، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٩٨٨م.
٧٧. المجموع، محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف بن مـرِّي بن حسن النووي الشافعي الدمشقي (ت ٦٧٦هـ)، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٧م.
٧٨. مروج الذهب، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت ٣٤٦هـ)، تحقيق: محمّد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، ط ٥، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.
٧٩. المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله بن محمّد بن حمدويه الحاكم النيسابوري (ت ٤٠٥هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ.

٨٠. المسند، أحمد بن محمّد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١هـ)، دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، بيروت، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
٨١. المصباح المضيء في كتاب النبيّ الأميّ ورسله إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي، أبو عبد الله محمّد بن علي بن أحمد بن حديدة الأنصاري (ت ٧٨٣هـ)، تحقيق: محمّد عظيم الدين، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٥هـ.
٨٢. المصنف في الأحاديث والآثار، أبو بكر عبد الله بن محمّد بن أبي شيبة الكوفي (ت ٢٣٥هـ)، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ.
٨٣. المصنف، أبو بكر عبد الرزاق بن همام ابن أبي شيبة الصنعاني (ت ٢١١هـ)، دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، بيروت، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.
٨٤. المعجم الكبير، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (ت ٣٦٠هـ)، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة الزهراء، الموصل، الطبعة: الثانية، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٣م.
٨٥. معرفة السنن والآثار عن الإمام أبي عبد الله محمّد بن إدريس الشافعي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي الخسروجردي (ت ٤٥٨هـ)، تحقيق: سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت.
٨٦. معرفة الصحابة، أبو نعيم أحمد بن عبدالله بن أحمد بن إسحاق بن مهران الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ)، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي، دار الوطن، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ/ ١٩٨٨م.
٨٧. المغازي، أبو عبد الله محمّد بن عمر بن واقد الواقدي (ت ٢٠٧هـ)، تحقيق: محمّد عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.
٨٨. مفردات ألفاظ القرآن الكريم، الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٣هـ)، تحقيق:

صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت.
٨٩. منال الطالب في شرح طوال الغرائب، المبارك بن محمّد بن الأثير، تحقيق: د. محمود محمّد الطناحي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.
٩٠. المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمّد بن الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، دار صادر، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٣٥٨هـ.
٩١. نصب الراية لأحاديث الهداية، أبو محمّد عبد الله بن يوسف الحنفي الزيلعي (ت ٧٦٢هـ)، تحقيق: محمّد يوسف البنوري، دار الحديث، مصر، ١٣٥٧هـ.
٩٢. نهج البلاغة، من كلام الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، جمع الشريف الرضي، المتوفى سنة ٤٠٦هـ.
٩٣. هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، أبو عبد الله شمس الدين محمّد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي (ت ٧٥١هـ)، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة.

❁❁❁

محتويات الكتاب

❀❀❀

الخطاب الإسلامي المعاصر في حاجة إلى أن يخاطب الغرب والشرق، وأن لا ينطويَ على ذاته، وهذا يستدعي منّا أن نعرف ثقافات الشعوب والمجتمعات العالمية لكي نخاطبهم بلسانهم، وإن لم نفعل ذلك فدعوى العالمية ستبقى شعاراً دون ممارسة، وفي الوقت المعاصر هناك إمكانيات هائلة للتواصل ومعرفة الآخر معرفة دقيقة، فقط نحتاج إلى خطط واستراتيجيات ذات رؤى واضحة.

المركز الإسلامي الثقافي
مجمع الإمامين الحسنين عليهما السلام